

منير الرقي

تـ

د □

إهداء

إلى روح والدي الذي شرح صدورنا للقصص في "فتوح الشام" قبل أن تستهلكنا أخبار التلفاز، و إلى ابني محمد طه ليعلم أخيرا كنه العناء الذي أمضيته في الكتابة، و ليغفر لي إهمالي له فترة إعداد هذه الرواية.

شكر

خالص شكري إلى الذين عاشوا معاناتي و أفسد الكتاب طمأنينتهم:

الأستاذ توفيق بكار

الأستاذ أبو لبابة البحري الرقي	الأستاذ شكري الرحيبي
الأستاذ عبد القادر اللطيفي	الأستاذ علي الحامدي
الأستاذ نجم الدين عمر	الأستاذ نور الدين الغيلوفي

بيان الكاتب

أرى الأشياء المحيطة بنا تحملنا إلى اللاّمعنى في زمن انقلبت فيه المفاهيم و تغيّرت القيم فتبدّل الخلق خلقا جديدا. هكذا ولدنا فألفينا أنفسنا نرى أبطال التاريخ يموتون و قد تبرّأ منهم القريب و البعيد ثم ينتصب أشباه الرجال أبطالا، لذلك أردت عملي تأسيسا للسؤال حول تاريخنا و حاضرنا و دعوة إلى الفصل بين الرجال وأشباههم و محاولة لترك البداهة و عودا إلى ما نسينا من التاريخ في حقبة قلّما قرئت اللّهم إلا أن يكون التصفيق و الهتاف
غاية، و ما أكثر من تأمّل الماضي و هو لا يحسن الإبصار وما أكثر من أصغى بغير أذن و ما أكثر من قفا الأثر ضالاّ مُضِلا.

و لعلّك حين تقرأ تصطدم بأمثال "يوسف المنصري" و لعلّ وهم التشبيه يدعوك إلى تمثّل شخص أو حادثة فاعلم حينها أنني ما قصدت شخصا بعينه و لكنني قصدت ما أنت تداريه بقلبك فتظهره الكلمات، وما عنيت حادثة بعينها لكنني عانيت جميع التاريخ.

في هذا الزمن الخائب ولدنا، و قضى القلم أن نشتدّ فننهض لرسالة الكتابة حبوا نجرّب من خلالها تعلّم المشي على الأرجل لا على الأنوف. إنما لا أعد أن آتي جديدا مبدعا أو عتيقا يُعاد لكنّي آليت على نفسي أن أنفذ إلى الحقيقة أجرّدها و إلى القيم الأصيلة أسائلها فأنفض عنها غبار النسيان. و إن وجدت في ما أكتب شيئا من الجموح و الجنون **فاعلم أنّه من العيب أن لا نجنّ** في هذا الزمن الممحل الذي عزّت فيه البطولات و ذوت الذاكرة حتى **صرنا أضحوكة التاريخ نخبط في الكون خبط عشواء استباحها البعير فالمستنوق**. هكذا "سوّلت لي نفسي الأمّارة بالسّوء" أن أكتب في العسر لا في اليسر مشاكسة لا مداعبة. حتى لتجدنّ نفسك تقرأ ثمّ تعيد ما **قرأت** لتعلم أن ما أنت عليه **لا يستمسك بالنظرة الأولى**، و **أن ما نحياه من البداهة مكمن الداء و مسكن الشياطين كلها**.

أريدها قصّة تَبكي الذين لم يبكوا أنفسَهم و رحلة إلى **بدايات تشكّل الوعي**، بل أريدها **قصة الذين لم يتحدث عنهم أحد**، أولئك الذين **حلّوا في ثياب الآخر فتقطعت بهم السبل فلا هم إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء كأنما حصدوا لعنة التاريخ كله**.

و قد ترى أنني انشغلت بالماضي عن الحاضر و قد ترى أنني غافل عن مآسي الحال بآلام ما فات و ولّى، لكنني أبدا ما كنت عن واقعي عشيّا إنما ابتغيت أن أصيخ للآلام جميعها أبحث عن مأتاها و منبعها، و اعتقدت أنني **إن فهمت الماضي فبالإمكان فهم الحاضر و المستقبل معا**. فمأساة يوسف المنصري مشهد من مآسينا التي أجد أبشعها أن يسيل العربي دم أخيه و ما ثمّ مصلحة ينالها، و ما ثمة إلا الخزي.

عزيزي القارئ هذا العمل جزء من مشروع مجهد سأسائل فيه حقبا من التاريخ **استهللتها ببداية القرن الماضي و أعتزم تمحيص** الفترات المؤلمة التي مرّ بها عالمنا.

و إن كانت العادة تقتضي أن يرجو الكاتب للقارئ في نهاية تقديمه قراءة ممتعة فانا لن أتمناها لك لكوني **لا أطلب المتعة في كنهها العادي لكنني طلبت لذة تنشأ من البشاعة وانعكاس مفهوم البطولة و تهشّم الأزمنة وانقطاع الجهد و نكران**

الراحــة، لذلك لا أرجـو إلا أن تكون القراءة مزيدا مـن التنغيـص و الألم : فقراءةً سيئة حدّ التنغيص إذن.

منير الرقي

نزلت من **"**الفرقاطة**"** بعد رحلة مجهدة. رأيت خلالها عددا من الجنود أمثالي عرب و فرنسيين. كنت مشغولا بهمومي عن العالم كله. و منعتني ذكريات الحرب و آلامها الاختلاط..نزلت السلّم المدرّج...أخرجت أوراقي العسكريّة و حالما لمست قدماي الأرضَ، قدمتها إلى ملازم بالبحرية الفرنسية ما وددت تأدية التحية له بعدما رأيت من نكرانهم، غير أني رفعت يدي إلى صدغي الأيمن مكرها خشية أن يتجدّد مسلسل الاعتقال، فلا أزال في نظرهم مجنّدا عليه ما عليه من بروتوكول المراتب العسكريّة. قال الملازم بعد تفحص أوراقي و النظر في دفاتره.

- le caporal chef, Josef Mansart ? - الرقيب الأول جوزيف مانسرت؟

- Oui, mon lieutenant ! حاضر سيدي !

- الملازم

- Je souhaite que vous ayez la bonté d'oublier cette impardonnable faute. - أرجو أن تطيب نفسك لنسيان تلك الغلطة الفادحة .

كنت أرفع يدي محييا حتى أردف:

- Vous pouvez disposer. Monsieur Mansart! Nous étions en guerre, et comme vous le savez, les traîtres sont à craindre plus que les ennemis. Bref, oublions tout ça. Le chemin était trop long, et il le sera aussi jusqu'à Gabès, mais enfin, vous aurez la chance de profiter du voyage sur notre première ligne et jouir de la nouvelle Traction !*

- استرح**!** سيد مانسرت**!** لقد كنا في حرب، و كما علمت، فإن الخونة أولى بالخشية من الأعداء...لننس كل هذا**!** لقد كانت الطريق طويلة، و ستكون كذلك حتى "قابس"...لكن ستكون محظوظا بالسفر على خطنا الأول، و التمتع "بالتراكسيون" الجديدة

أشار الملازم إلى سيّارة عسكريّة جديدة سوداء، فخمة في حجم مقطورة صغيرة كم كنّا في حاجة إلى مثلها خلال الحرب. كانوا ينقلوننا كالبضاعة فوق كل ما يمكن أن يتحرك، إذ اقتضت أولوية « الوطنيّة » مصادرة البغال و الحمر و الخيول و السيّارات، حتّى لم يعد ثمّة ما يصادر، وعندما
أمِر فيلقُ الأفارقة بالتحرّك للمساعدة على إيقاف الزّحف الألماني، وجد « الكولونيل جان » نفسه مكرها على السير بنا مائة ميل على الأقدام، فلم يكن ثمّة حمار واحد إلا و قد اتّخذ طريقه قبلنا نحو الخنادق في المواقع المختلفة. و تقرر إرسالنا إلى "الأردين Ardennes"...احتفرنا الخنادق على مسافة قريبة من الأعداء نتقيهم ببنادقنا و يقذفوننا بالجحيم. كنا وحدنا مجَهّزين ببنادق طويلة غير نافعة و كان الألمان و الجنود الفرنسيون مدجّجين بأحدث الرشاشات.
قال رفيقي عبدولاي رحمه الله:"إن جلب الملح في بلادي لأهون عليّ من هذه المسيرة، وبعد لم نخض الحرب !"...
حاربنا معهم بخوفنا وعزمنا على إيقاف النزيف الفرنسي، و استطعنا إيقاف عدوّهم الذي صار عدونا لكن بعدما خسرنا نصف الفيلق تقريبا و ما كنت بين الأموات، رغم أنني لم اجتهد كثيرا في اتقاء نيران المدافع و القنابل. كنّا نعمّق الخنادق ونحصّنها و لم نعلم أنها ستصبح مقبرة للكثير من الأخوة، فما أيسر أن تقع القذيفة على أكوام الرّمل الموحل فترتق فتق الأرض وتطمر الأرانب المختبئة، و كان أشدّ ما نخشاه أن نموت مختنقين بالغاز لجهلنا ما يشعر به المرء و هو يفقد القدرة على تنفس هواء الله اليسير...شاهدنا الكولونيل يوزّع الأقنعة الواقية على أبناء جلدته المنسحبين بعدما وصلت أخبار استعمال الألمان للغاز في مدينة "إيبر Ypres" البلجيكية. و صرنا كلّما رأينا دخانا متصاعدا انبطحنا صائحين "غاز...غاز".
نجحنا على عللنا في إيقافهم فلزموا مواقعهم، و أقاموا خنادقهم بعدما ابتلعوا كثيرا من الأرض حتى صارت مدينة الأحلام والأضواء في خطر محدق...
كم كانت مؤلمة تلك الحرب التي تطوعتُ لخوضها. الجميع في بلدي يخشونها، فكنت ترى أهل من وقعت عليه القرعة يشيّعونه إلى "القازرنة" بجنازة مفزعة، يبكونه و يندبون شبابه الضائع كأنه مات توّا. و كانوا جميعا محقّين: إذ تعني القرعة في غالب الأحيان موتا أكيدا. أمّا أنا فكنت المتطوّع الوحيد في حرب ما عُنيت فيها بشرف فرنسا و فضلها المزعوم، لكني هربت إليها من إثم قتلي ابن عمي "الطاهر" فما كان منها إلا أن أتمّت فاجعتي، لم أعد أدري أية لعنة جنيتُ حتى ينضاف ابن خالي إلى قائمة من قتلت. هناك حيث امتلأت الأرض بأبناء

الجنسيّات المختلفة في رقعة ليست كبيرة، كان يفترض أن أقتل ألمانيا أشقر و في أسوإ احتمالات الخطإ كان يمكن أن أقتل رفيقا مسلما لا يجمعك به دم أو إفريقيا راطنا لا تلوم نفسك لقتله، لكن كل ذلك لم يكن ليرضي القدر فجعل في طريقي آخر من كنت أعتقد أن يقتل بيديّ: ابن خالي "المنصف".
قديما هربت إلى الحرب اتقاء مشهد الحزن في ملامح عمي فإلى أين المهرب الآن. لم أعد احتمل المزيد من الكتمان. لا بد لكل هذه الأسرار من سبيل إلى الإفصاح. و لست أنتظر إلا أن أعود إلى عائلتي بل إلى كل البلدة لأخبرهم جميعا بحقيقة ما فعلت، سأفضي إليهم بخبر "الطاهر" ابن عمي وأنبئهم كيف اللحم تمزّقه الحربة حتى يُسمع شخير الدماء و تهشُّم الأضلع، كذلك قتلت ابن خالي "المنصف" رحمه الله. آن لعذابي أخيرا أن ينتهي فأرتاح من طنين الرّصاص و صوت الحربة و هي تشرح اللّحم و تنخر العظام. آن لي أن أشرع صدري لرحلة الاعتراف. فيا "سيدي الحاج ناصف" ألهمني أن أتكلم كالرجال.
شكرت الملازم على اهتمامه ودلفت إلى السيارة. اتخذت موقعا في الخلف بين عائلة بدينة فهمت من كلامهم أنهم متجهون إلى مدينة سوسة. و بدأت رحلة العودة. فعادني الخزي.
بأيّ وجه أعود؟...و إلى أين؟ قريبا سيصطفون مهنئين سائلين عن أحبابهم وأحبابي...قريبا سيأتي خالي "محمد النّاصفي" شيخ العلوم و آخر الدراويش ليسألني إن كنت عرفت شيئا عن مصير ابنه الوحيد الذي استهلك للحصول عليه ثلاث زوجات متتاليات من بنات أعمامه الأشراف، حفدة سيدي الحاج ناصف.أأخبره أن ابنه مات بيديّ، و دفنته؟...كما فعلت قبله بابن عمي "الطاهر"...
خزي يذكّرني صرخاتهما و هما ينزفان دمي...بأيّ لون سأروي الحكاية المشبعة ألما؟
خزي بطعم الوحل في ساحة المعركة...جثث مثلّجة عارية تفتح أعينها، تعتادها، ثم تكره صرختها الموجعة المكتومة.
خزي بطعم مرارة القتل من أجل ما تعتقده وطنا، فيتهمك بالخيانة.
خزي بطعم قتل من أحببتهم ابن عمي "الطاهر" ثم ابن خالي" المنصف كتب"...ثم ها أنا في الثلاثين مثقل بأسرار لا تقدر الكواهل على حملها، قلبي مترع و فمي انحباس. الآن يعود وهج الذاكرة نيئا لافحا عاريا...أتخطى الحواجز الترابية و الأسلاك الشائكة و الخنادق، أشلاء الأجساد تحيطني و أطراف رفاقي تتطاير مع كل قذيفة يرسلها الألمان، و أنا كالكلب أتقدّم نحوهم غاضبا...قفزت

إليه، لم تكن ملامحه بيّنة في زيّه الألماني، طعنة واحدة لا تكفي، و ثانية و ثالثة انغرست بها الحربة في صدره..لم انتبه بسبب القذائف و طلقات الرشاشات الجديدة...حتى صرخ "يمــّـــا...يمـّا"...
انتفضت من إغماءة ظلت تلازمني منذ أدخلوني المعتقل متهما بخيانة أسيادي الفرنسيين...كان جليسي - و هو رجل في الخمسين - يمعن في مسكي، و أنا أنتفض مرتعدا غائبا و كانت بطنه ترتج بفعل اهتزازي. بدت الحيرة واضحة على ملامح رفيق الرحلة فقد تكوّرت شفتاه و علا حاجباه كأنه لم يشاهد جنديّا البتّة.
قدّمت لي زوجُه كوبَ ماء في حركة حنون مضطربة. و كان بينهما طفل يصرخ مُروّعا:

- Maman ! L'arabe ! L'arabe me fait peur.

- ماما!...العربي!...العربي يخيفني.
بينما راحت الأمّ تهدئه باللين حينا و الشدة حينا آخر، و كان يزداد بكاء...شكرت المرأةَ عطفَـها بهزّة رأس -على طريقتهم- غير أني ما تناولت كوبها، وقلت في لطف :

- Madame! Dites à ce petit monsieur que je m'appelais Joseph.

سيدتي، أخبري هذا السيد الصغير أني كنت أسمَّى جوزيف.
قال والد الطفل كالمجرّب:-

- Il vous arrive souvent de faire des cauchemars ? Je vous vois trembler depuis une heure.

- هل أنت معتاد على الكوابيس؟ أراك ترتجف منذ ساعة.

- Oui. La guerre est toujours présente, la prison et le dégoût des accusations aussi.

- أجل. الحرب أبدا ماثلة، و السجن ، وقرف الاتهامات أيضا.

- Il paraît que La guerre vous a violemment marqué. Monsieur!...Calmez-vous !

- يبدو أن الحرب آلمتك بعنف! ...هلاّ هدأت!
فضّلت عدم التعليق على ما قال، لأنني وجدت طلب الهدوء هراء لا سبيل إليه.
أنّى السّكون و الحرب بتفاصيلها تفيض على القلب تذكّره صراخ الرّفاق المنهكين و الوجوه الميّتة؟....
كنـّا في البداية نسلم الموتى أو ما تبقى منهم إلى الخدمات الطبية غير أنّ تهاطل الثلوج و القذائفَ والوحلَ حال دون الإجلاء. أذكُرُ أنّ الكولونيل جان أمر

بتكديسهم عند مداخل خنادق الاتصال أملا في وصول الإغاثة و لمّا لم تأت، أمر بتركهم حيث قضوا. هل تعودنا على الجثث؟هل ماتت المشاعر؟ لقد كان أمرا حتما أن نتعايش مع الجيف لازدياد أعدادها،و ما كان لنا إلاّ أن نخاف حتى لا نقتل أو نجنّ كآلاف ممن قضوا في ذلك الجحيم الموحل. كنّا مرعوبين نحدّث أنفسنا و نتّقي شرور القنابل والشظايا المصفّرة بالجثث، نكدّسها فوقنا كالأردية...

أنّى يكون نسيان عبدولاي، و قد تناثر نصف رأسه قبل أن يُتمَّ عقوبة عشرين دورة في "وضع النحلة"؟...هرع إليه أبناء عمّه من السينيغاليين في حركات مجنونة و فيهم أخوه مامادو الذي طفق يجمع قطع الدماغ المبعثرة منتحبا. أمّا الكولونيل جان فقد داس على إحدى يديه قائلا:

"Arrêtez ce vacarme, il n´est plus là."صه لقد مات"
"

نظرات الحقد المنبعثة من أعينهم تغتالني تذكّرني استباحة دم ابن عمي، و برود الكولونيل يعيدني إلى جلدتي الحقيقية "نصف" فرنسي بإرادة واهية. قال الجنرال Lucien المخدوع قبل ذلك وهو يقبل أوراق تطوعي للحرب:

- Youssouf Mansari? Euh ! Drôle de nom ! Si tu veux ressembler à un français, un vrai, il faut s’en débarrasser, n’est-ce pas ?

- يوسف المنصري؟ ياله من اسم مضحك! إن كنت ترغب في أن تشبه فرنسيا حقيقيا، فعليك التخلص منه، أليس كذلك؟

و كمن عثر على المطلوب قال:

- Tiens ! En voila un qui fera l’affaire: Joseph Mansart.

- إليك! هذا اسم سيَفِي بالغرض: جوزيف مانسرت.

هكذا أبدل الجنرال لوسيان Lucien هويتي و حوّلني إلى كائن جديد تيمّنا بـفرانسوا مانسرت"Mansart François" أحد المهندسين البارعين الذين أسهموا في بناء منشآت فرنسا خلال القرن السابع عشر. لطالما شعرت بالفخر بذلك الاسم الذي كان أوّل ما سقط من ورق التوت، و أوّل صعودي إلى أحلام عالم الأزرار الذهبية...لقد اكتسبت مع الجنرال لوسيان Lucien نسبة جديدة، و كان قد تلقى رسالة توصية من المفتش جوليان Julien الذي عملت عنده في مركز الجندرمة بتونس الحاضرة.

لقد وجدتُ في الجنديّة في البداية مهربا مناسبا من اليأس من الإحباط من ذكرى "الطاهر" ابن عمي...من مشهده والرصاصة تخترق رأسه و أنا العاجز القاتل...وجدني الجنرال واهنا فبث فيّ النكتة و ألف فرنسيّتي، فعلّمني الإنصات إلى فنهم و صياحهم، ووجدني في زمرة السينيغاليين..فانتشلني. جعلني أحد أعوانه المخلصين. أقف بباب مكتبه أستلم عنه البريد، أمهل الداخلين حتى يخبّئ زجاجات الشمبانيا...أو يكتم الاسطوانات الصادحة...كان يثق بي فيبعثني إلى زوجته بالهدايا والرسائل في محل إقامته بِمُونْ فْلوري"Mont fleuri". كنت خادما وأمين سرّ... وعندما أعلمت الجنرال بأن زوجه تخونه مع الرقيب أوليفيي"Olivier" استكتمني سره و اطمأنّ إلي، ثم وجدت فيّ زوجته محلا للانتقام من بعلها. فحللت محل الرقيب الذي روى قبرَه بولُ الكلب.
لست أنسى ذلك اليوم الذي أمرني فيه الجنرال أن أرافقه إلى الكنيسة، جثا عند الصليب، ضمّ كفّيه إلى صدره، و ظلّ يبتهل مغرقا في تمتمة غالبها حزن دفين...قدِم "الأب رافائيل" بخطى مطمئنة بطيئة، فقطع الجنرال صلاته و هرول إليه. كان حديثهما هادئا ثمّ اختليا في مقصورة الاعتراف طويلا.
خرج الأب ممتقع اللون أمّا الجنرال المخدوع فكان مضطربا وتأكّد لي أنّه يدبّر أمرا فليس من طبعه تحمّل الهوان و لا العيش مع العار. ثم خرجنا من الكنيسة فعرّج على بيته في غير أوان أوبته، اتّجه صوب غرفة النّوم مصرّا على مرافقتي له رغم ما أبديت من الحرج، و قد ازداد حرجي عندما صدمتنا أصوات وشهقات نزقة قادمة من مخدع الزوجة البغيّ. دخل على زوجه هادئا، وقف يتأمّلهما عاريين، ثم أفرغ مسدّسه في صدر الرّقيب أوليفيي Olivier الخائن، و أمرني أن أدفنه عند مربط الكلب، و لم نتحدّث بعدها عن الأمر.
كان الجنرال صورة مشوّشة لفرنسا عطفا و قسوة. يصلني كرمُها وغضبُها. كنت بباب مكتبه دوما، لا أفارقه و لو فارقت الحياة. فإذا خلونا جاءني صوته الفخم سلسا وهو يسألني " Alors! Mon fils ? إذن بني؟" و يحدثّني حديث الأب، و لما اكتشف عذوبة صوتي جعلني أعلّم صفّ المتدربين الأغاني العسكرية، ثمّ عندما علم أني كنت أراسل "المنصف" في تركيا نهرني ولم يرفع الأمر إلى المحكمة العسكريّة، فتوقفتُ عن مراسلة ابن خالي لكنه لم يتوقّف. فلمّا انتحر الجنرال وجدت نفسي في الجبهة...
استطاع يوسف المنصري الهدوء بعد نوبة ثانية من التّوتّر...لبث الطفل الذي كان يحاذيه يبكي طوال الطريق خائفا من أنياب قد تطلع من فم جليسه...و ظلّت الأمّ تقرصه حتى لا يزيدها إحراجا...

أخيرا أدركت السيارة وسط مدينة سوسة فأطلّ السور شامخا بمآذنه و قبابه العديدة..كان الفرنسيون يستظلّون به في ما يشبه المقهى، ينتشرون في كل مكان و قد اختلط بهم بعض الشباب ممن ارتبطت مصالحهم بالمقيمين. انفتح باب السيارة فجمعت الأسرة أبدانها البطيئة في حركة مملّة و لم ينس الوالد العطوف المترهّل أن يتمنّى لي حظا سعيدا، ثم اندفع إلى الخارج كأنّه كرة من اللّحم...حينها هبّ نسيم خريفي رطب هدّأ بعض الذكرى. وما هي إلا لحظات حتى تحرّكت السيارة تجر وراءها التراب...
في مقدّمة العربة سائق مجند و يهوديّان ميّزهما بغلبة" الخاء" و"الشين" على خطابهما السّريع. يليهما "جندرميّ " يغطّ في نوم عميق. كانت السّيارة تختال على طريق ترابيّة ترامت على أطرافها أشجار الزيتون...ثم أخذت الخضرة تنتظم في أشكال هندسيّة منسّقة فحيثما امتد النظر كان يشاهد أسطرا متوازية وقد تحين منه التفاتة فتنقلب الأسطر مربعات مرتبة قد أحكم رصفها فهي تحت أشعة الشمس صفراء ملتمعة...اتّخذ الضوء سبيله إليه عبر النوافذ البلورية الضيقة...أرسل يوسف المنصري نفسا حارا...حاول مدّ رجليه أسفل المقعد المقابل ليتقي شمس العصر لولا أن أصابَ الوتدُ بعضًا من الكدمات الكثيرة...فعدل عن الفكرة...
كان السائق يراقبه من خلال المرآة العاكسة وتواجهت النظرات فحيّاه السائق المجند بحاجبيه ولكنه لم يجد رغبة في التواصل فأشاح عنه و تكوّر على نفسه....كانت صرّة من الرسائل تصدر خشخشة بين طيّات معطفه العسكري الأزرق الطويل....رسائله المتبادلة مع "المنصف كُتُبْ" ورسائل"Angélique Du Champs أنجيليك ديشان". كان بعضها مما احتفظ به وبعضها الآخر مما و جده في معطف "المنصف" بعد مقتله...أحسّ الوحدة تغزوه...ودّ لو يحتضن أحبته جميعا و أهله: أمّه و أخته و أخاه ناصفا الذي كان يتبعه ظلاّ، و يقلّده في كلّ شيء. ودّ لو يحتضنونه و يبكون معه في غير سؤال. ضمّ إلى صدره صرّة الرسائل وأسلم نفسه لنوم كالبكاء...
لم تقف السيارة خلال دخولها مدينة قابس- مساء- بالقسم " العربي"المعتم من المدينة لا في "المنزل " ولا في "جارة" و لا في "القصر" بين الحيين. بل تجاوزتها و توغّلت في الـ "Boulevard" باب البحر" و هو الحيّ الذي اتخذه الفرنسيون للإقامة. بدأت تبطئ السير و ألقى يوسف المنصري نظرة متفاجئة على المنازل الجديدة التي كانت تطلّ منيرة الطريق بنوافذها الملوّنة، زرقة ذكّرته لوهلة ساحلَ مرسيليا الذي أدركه بنفس الفرقاطة مساء بعد رحلة بحرية

مرهقة..ابتسم و هو يردّد قول عبدولاي - رحمه الله- "هلوة" قاصدا الحاء بدل الهاء..كانت نوافذها زرقاء حبيبة متراقصة مع حركة نسيم البحر. و كان بعض أضلعها يداعب صدور النّسوة وهنّ يرقبننا نتقدّم في زيّنا العسكريّ ...بل كان بعضهنّ يرسل إلينا القبلات فيردّ عليهن الكولونيل جان بهزة خفيفة للـــ"بيريّة" العسكريّة الفخمة. أمّا عبدولاي فكان يدسّ يده في جيبه وهو يردّد "هلوة ..هلوة..". فيردّدها أخوه مامادو من بعده...
أخيرا توقّفت الحافلة في ساحة فسيحة غطت جوانبها أشجار عظيمة غير مثمرة كان الفرنسيّون قد غرسوها في الحيّ الشرقي الموصل إلى المرفإ..ترجّل يوسف المنصري بخطى ضعيفة غير واثقة..سار تحت الفوانيس الجميلة. اتّخذ سبيله نحو الشرق بمحاذاة الوادي. اكتشف خلال سيره أنهم استولوا على أرض محمود بن جبر التي كثيرا ما أكل منها العنب أثناء تسكّعه مع ابن عمه "الطاهر" صغيرين. أرسل زفرة ساخرة و هو يرى صفوف النخل و الصفصاف تعوّض بكنيسة نافحت مئذنة "سيدي إدريس" ارتفاعـا.
استدار مع جدار الكنيسة يسارا. استقبل الجنوب ضاربا في الأرض الموحلة بينما راحت الأغنيات المنبعثة من مذاييع الحي "الرومي" تقاوم التلاشي. كان باستطاعته سماع بعض مقاطع "الناي السعيد" لـ" Mozart موزار" الأوبرا الأعظم بحسب الجنرال لوسيان المخدوع الذي تعوّد تشغيل اسطوانتها في مكتبه و لم يحرم لذتها إلا حين اشتعلت الحرب...
خيّم الليل على المدينة وتحرّكت الحياة على جانبي الوادي، فضاعت نغمات الناي في نقيق الضفادع المتجاوبة...
اجتاز في طريقه بعض الأحياء الخربة تباعا..خلّف "الفلّة" المؤدّية إلى "شطّ السّلام" و أفسح المجال لبعض العير التي انتهت من صلاة المغرب..تكوّنت تحت ستار الظلمة بعض الحلقات بمن استعدوا لجلسة "الحشيش" قبل أن يقفل "الجباليّة" دكاكينهم، أو بالهاربين من قيظ البيوت في بداية هذا الخريف التّعس...ازداد من بيتهم قربا و أحس جبينا يتندّى وخفقانا عتيّا يجتاح صدره.
لاح له مقام "سيدي الحاج ناصف" الذي لم يكن غائبا عنه أبدا إذ كان يراه كلما أخطأ أو ثقلت عليه الحياة لقد رآه أول ما امتدت يده إلى جيب أبيه صغيرا. و شاهده بعد مقتل "الطاهر" و رآه بعد انفلاق رأس "عبدولاي" و بعد مقتل "المنصف" صار حضور الشيخ أقوى..كان كما وصفه له خاله "محمد حفيظ المقام" شيخا في الستين هاربا إلى الله من فجور المقاصير و الإماء، أبيض

اللحية يشع وجهه نورا، و لا يتّخذ من الملابس إلاّ الطاهر الأبيض. اشتمّ رائحة البخور تفوح من جدرانه..ارتعشت الصّور في عينيه..و استعدّ لحدّة الموقف.... تقدّم نحو منزلهم المتهالك القابع خلف المقام...عرف طريقه إلى باب "الحوش" الكبير...باب بعرض مترين و نصف وطول مناسب لدخول بعير بحمله، يتوسّطه بويب صغير لا يغلق إلا في الليل و لا يدخل منه المرء إلا منحنيا...و النّاس في البلدة متعوّدون على الانحناء، إلا جدّه محمودا المنصري رحمه الله والسيدة "خاتون ناصيف" عندما جاءت لتسلّم السّلام الأخير قبل أن تصطحب معها ابن خاله "المنصف كتب" إلى تركيا و أمّا آخر الدّاخلين قياما فكان السيّد "
Jacques Du Champs جاك دي شان" حينما قدم يقنع والده بضرورة السماح له ليغادر إلى تونس...
كان السيد "Jacques جاك" أصل البليّة ورأس المشكلة. هو من فتح عينيّ على حبّ فرنسا والإعجاب بكلّ ما يتّصل بها: نقف صباحا أزواجا أمام القسم في "بلايزنا" المتّسخة ننتظر مقدمه منتعلين بعض "البلغ" المتهالكة وأكثرنا حفاة. و ما هي إلا لحظات حتى نراه قادما في بدلة سوداء و حذاء لامع و شعر أشقر مكشوف ورثت ابنته نعومته. يلقي التحيّة ثم يجلس إلى مكتبه متأمّلا بعينين زرقاوين و نجلس بعد قيام طويل. كنت و "الطاهر" نشبع نظرنا من ذلك الملاك الذي آمن برسالته و لم ندّخر جهدا في إرضاء بسمته العريضة. و قد لمس منا اهتماما فزاد تقرّبه وصرنا أمهر. أذكر أننا تفوقنا على ابنته "
Angélique أنجيليك" في الإملاء ولم تأخذه مشاعر الحسد بقدر شعوره بالسعادة. راح ينادي زملاءه، يريهم ورقتينا. ثمّ لم يكتف بما أدركنا من العلم بل صار يفتعل الغضب ليسلط علينا عقوبات دراسيّة فيستدعينا إلى بيته لتنظيم المكتبة أو لقراءة قصّة أو لكتابة ما لا يكتبه غيرنا. فنجلس مع ابنته نضحك و ندرس. كم كانت جميلة وهي تجلس على الكرسي يهل عليها الضوء من نافذة خلفها قد تبرّجت بستارة تحكي قصّة ذات الطرطور الأحمر و الذئب. و تتوسّط الطاولة باقة من الزّهور تحرص السّيدة " du champs ديشان" على قطفها من الحديقة الخلفيّة الصّغيرة. نرفع رؤوسنا فلا نرى خشب النّخيل المهترئ و إنّما يقابلنا سقف جصيّ حُلّي بنقوش بارزة، و عُلّقت على الجدران رسوم لفاكهة بعضها معلوم و بعضها لا يوجد إلا في قصص "خويا المنصف كْتُبْ" فإذا تقدّم الوقت أقبلت زوجته بطبق من "البسكوي" ينسينا طعمه مذاق الدود الأبيض بين أسناننا كلّما أخرجنا التمر من "خوابيه" الفخاريّة. و كنّا نحن بدورنا نفتعل الأخطاء في القسم للفوز بطبق " البسكوي " وصحبة Angélique أنجيليك...

لقد اختارنا صديقين لابنته، و حرص على أن ندرس في تونس الحاضرة بل قدم إلي بيتنا و جلس مع أبي على الحصير...كلّمه بعربية فصيحة يحبّها أهل البلدة...سأل عن حاله، عن تاريخ المنزل، عن "سيدي الحاج ناصف"، و حدّثته والدتي من وراء البخنق عن "أمي الخضراء". لبث يجادل أبي وعمّي في أهميّة أن نتلقى تعليمنا في العاصمة، وتوسّط لي لألتحق بمدرسة الآباء البيض و لكن والدي رحمه الله خشي عليّ "التَّمطرن". أقسم بالطلاق ثلاثا أن يحرمني "تونس" كلّها إن كان المسير إليها من أجل تعلّم المسيحيّة و رفض كما رفض بعد ذلك التحاقي بالجندرمة. عالج المعلم الموقف فاقترح عليه أن يدخلني معهد كارنو، فوافق رعاية للضّيف و فاته أن ليس في المعهد عربيّ واحد إلا من يرجى تفرنسه و هم قلة دُفِعوا إلى المعهد لقاء تعاون أهلهم مع السّلط الفرنسيّة. وكنت أنا مدفوعا بحبّ معلمي وثقته في نجاحي. دخلت المعهد فكأنّني اجتثثت من تربتي، وأغرقت الشُّقرة أحلامي فصارت العربيّة في فمي ثقيلة ثقلها على الفرنسيين، فلما علم والدي رحمه الله في العام الثالث واقع المعهد غضب غضبا شديدا ولكن أعفاه نجاحي من مشقة قسم الطلاق. فقنعت بالدراسة في معهد الفرنسيين.
أما عمّي فكان زيتونيا عارفا لا يخجل، فألحَق الطاهر "بالصادقية". هناك عرف ما لم أعرفه...ظلّ مدّة الدراسة يحفظ الشّعر و يلتهم الكتب العيون و ينهل ممّا كنت أدرس من آداب ثم يطلب المزيد حتى استقام له اللّسانان و علم عن نفسه و دينه و أهله ما أنسَتنِيه كوكبةُ الشقر. لقد خُيِّل إليّ حينها أنّني واحد منهم فكفّ اهتمامي بما لا يهتمّون به...
وقف يوسف أمام الباب لا يشعر بغير الكآبة.. قلب ميت وانتماء باهت، فلمّا مدّ يده لقرع الخشب المتهالك تمنّى لو يسمع نداء ابن عمه "الطاهر" من البيت المجاور...وحده "الطاهر" كان مغرما بالسّهر و القراءة التي ورثها عن "المنصف".
امتلأت عيناه دمعا...أحسّ أنه ابتعد عن عالمه كثيرا فما عاد جديرا بالانتماء إليه...
ثم ماذا؟ هذا أنا الآن قلب ممحل...و جسد أوجعه الاعتقال وهروب وراء السّراب. ما كان لكلّ شيء أن يحدث لولاك يا طاهر؟ لولا أنك استفززتني في مركز الجندرمة و حاولت الهروب...لولا أنّك اتهمتني بخيانة البلد وانعدام الرجولة...لولا اتباعك الحشّاشين أصحاب الترّهات من الذين رفضوا العمل و وقفوا أمام التيار، في ما يسمى بحركة الشباب التونسي ...كان "الطاهر" مكبّلا،

قُيّدت يداه إلى الأمام، متكوّرا على كرسيّ خشبيّ دامي الفم. لقد قبضنا عليه و هو يمنع الناس من ركوب الترام بعد مقتل أحد المواطنين على يدي سائق يهودي.
كان "الطاهر" يحرّض الجموع التي تزاحمت حوله على عصيان فرنسا
وينفض عن الناس رهبة السلاح و مخافة الهراوات..يخطب فيهم فتيا شابا يوقظ في صدورهم ما كاد يفنى من قيم الشجاعة و البطولة... ويردعهم عن ركوب آلة الموت ورمز الاستهانة بالدم المسلم.
كنّا في "السنترال" عندما بلغتنا الإشارة بوجود ثلّة من المفسدين الذين اتّخذوا من حادثة "التّرام" فرصة لإثارة الهرج. اندفعنا إليهم بالهراوات الطويلة و البنادق نتصايح فشققنا صفوفهم و تفرّق من كان حولهم من النظـّارة دون أن تفعل في آذانهم الخطب. شرعنا بعدها نجمع أكباشهم، نطاردهم، نسوقهم بالعصي إلى صفّ من الزملاء سدّوا الشارع مستعدين لفلولهم، فكان صيدا سهلا لم نرهق أنفسنا في طرده، إلا واحدا فقط ظلّ يعدو نحو الصفّ هاربا من الهراوات و في اللحظة التي تواجهت فيها الوجوه قفز قفزة جعلت المطاردين و الصف وراءه و استمرّ يعدو. كان المفتش " جوليان Julien " يتأملني، و هزّ حاجبيه ففهمت، وطلبت الهارب بأنفاس متقطعة، ثم تشجّع جمع من الزملاء ففعلوا مثل فعلي و سرنا خلفه حتى ضاقت به السّبل. كنت مأخوذا بفكرة واحدة أن أرضي رئيسي و لم أفكّر في من يكون هذا الهارب الأخرق حتى تعثّر فلحقته وهويت على ظهره بالهراوة فسقط، ولما التفتَ إلي عرفته. لقد كان "الطاهر" ابن عمي.
تأخّرتُ عنه خطوة و هو يلهث، ينظر نحوي صامتا آسفا محتقرا، فتمنيتُ لو لم أولد.
لحق بنا المطاردون فتناولوه ساخطين يسبّون آباءه. أما أنا فقد ربّت المفتش على كتفي. بقيتُ يومها غارقا في مزيج من الألم و النّدم و الكره، ما كان عليه أن يهرب و ما كان عليه أن يكون ساعتها هناك. خشيت أن يعلم الجمع قرابتنا فيذهب بهم الظـّنّ مذاهب سيئة، و بحثت عن مخرج أبث به نبأ الدم الذي يجمعنا، حتى حان دور استجوابه.
كان "الطاهر" يبصق على المحقّق و ينال الصّفع كلّما طلب منه ذكر الأسماء التي يتصل بها. و كان لا يصغي لشيء بل اكتفى بتحريك رجليه و النّظر إلى السّقف كأنّ الأمر لا يعنيه و يسألني:
"و انت ما تحب تسأل على شيء؟ عجبك اللي يصير؟...يقودو فيك كالبهيم ....و لاّ انت اللي باش تقتلني؟....اقتل...اقتل..."

ظلّ يمدّ ساقيه يحاول ركلي، فينهال عليه المحقق بالصفع وأنا ميّت خجلا و خوفا...أعلمتُ المحقق أنّ "الطاهر" قريب فتوقّف عن صفعه و همّ بالقيام و لكّنه همس إليّ غامزا:

" -Youssef ! À toi de le convaincre. Tu sais, tu dois craindre le pire pour lui"

"- يوسف، أقنعه...احذر الأسوأ الذي قد يصيبه. "

و همس محذرا:

-"La peine de mort…il faut y penser, mon cher"

- عقوبة الموت، يا عزيزي، يجب أن يُفكر فيها مليا.

ودّع المحقق "الطّاهر" بجذبه من بلوزته التونسيّة فسقطت "شاشيّته المجيدي" التي كان يفاخر بها شباب الحيّ و يميل بها قلوب الفتيات و أختي "الزّهرة" فيهنّ. كنت أرى الإعجاب في عينيها و تورّد خدّيها كلما أطلّ "الطاهر" بـ"شاشيّته" من البويب...

خلوت به فحدجني بنظرة ملتهبة...كانت مشاعري مختلطة فقد افسد "الطاهر" صورتي الحسنة التي اكتسبتها خلال سنتين من الكدّ في سلك الجندرمة و صارت لديّ كلمتي بين الفرنسيين، حتى أنّ المفتش استضافني في بيته، بل عرّفني على ابنته جاكلين وبدأتُ أرتاح إلى العمل...أتاحت لي معرفتي باللغتين القيام بدور المترجم في النّزاعات وشرح ما يقوله المواطنون للمحققين وكنت أحرف الترجمة ليرضى أسيادي، إلا إذا كان القادم يحسن الفرنسيّة، و قد كان "الطاهر" "عفريتا" ورث حبّ اللغات من ابن خالنا "المنصف"، لكنه فضّل في قضية الحال ألاّ يتكلّم إلاّ العربيّة كأنّه كسائر الأغبياء أميّ جاهل.

وقف يوسف المنصري غاضبا محبطا خائفا من أن تكون لجريرة ابن عمّه عواقب على مسيرته الجديدة و لكنّه أحسّ في ذات الوقت بدمائه تنزف من فم القريب المغامر. حرص في البداية على أن يكون خطابه جارحا:

- ما لقيت ما تعمل؟ شركة الترام فلّستوها، مانعين الناس من مصالحها على خاطر فرخ صغير، شقّ الطريق بالغالط مات عملتو عليه هيلمان، و تجمعو في السلاح...و قِيل تحبّوا تحاربو. فسّدت مستقبلك؟ أش باش تقول لعمّي؟

-الفرخ اللي مات احسبه خوك الصغير...وعمّك راجل من ظهر راجل...خمّم على روحك يا "طحّان" أسيادك.

-أ ولد عمي ! أخطاك من هالمصيبة و احكيلي آش تعرف.

- ....

-يعيشك ! راني خوك ! ..علاش تحب تدّمرني؟

-.......

-راهم ناس ما يعرفوش ربي.

-و انت تعرفه ربّي...عاجبينك الزوز فرنك اللي تاخذ فيهم كل شهر؟
فيق...البلاد كربوها...كنا نعانو في "الشيخ" و"القايد" والخليفة زاد عليهم دُمّار الفرنسيس.

-احكي ياطاهر.

-راني عارفك بهيم.

-اتكلّم و الاّ نتبرّا منّك ونخلّيك للكلاب تمترشك.

- يا بغل آش نقول...ما عندكش رجولية، تحبني نقوّد على "علي باش حانبة" نور البلاد اللي يفيّق في البغال أمثالك والاّ خالك الشيخ "محمّد" و الاّ على "المنصف كثُبْ"...سجّل حتّى "المنصف" يدز في الأتراك باش يعاونونا، كلّهم شركا في حب البلاد...سجّل الكلام...سجّل.

رفضت ما كان يتفوّه به. كان كلّ حرف من كلامه خنجرا ينغرز في انتمائي و يطعن رجولتي. أيكونون حقا ما هم عليه؟ و لم أفردت ؟ و لِم أكون آخر من يعلم؟ أنا الذي اعتقدت أن "المنصف" لا يمكن أن يخبئ شيئا عني فلقد بقي على علاقة جيدة بنا حتى وهو في تركيا و عندما نضجت كنت أراسله، أحدثه عن مغامراتي مع "الطاهر"...لم أوار عنه خبرا واحدا كان يعلم عني كلّ شيء، حتى اختصامي و "الطاهر" في جاكلين المجنونة. ما الذي لم يخوّلني لأكون معهم؟. و أنّى للمنصف أن يعين الحركة و هو في تركيا؟ لقد كان يكتب إليّ فلم يكن في رسائله ما يريب...و الحق أنني ما فكرت يوما أن أكون معهم بقدر خشيتي أن أكون ضدّهم وهو ما لا أستطيعه...و هو ما أنا مقدم عليه اليوم. ضممت وجهي بين يدي و زعقت رافضا:

-كذب... كذب... كذب... كذب.

أعترف أنني كرهت "الطاهر" حينها، لكن ليس الكره الذي قد يدفعني لقتله. وجدتني مأخوذا بالمصيبة التي حلّت بمنصبي خائفا مما قد يترتّب عن القبض عليه و تجريمه، متهيّبا من أن يشكّوا فيّ أيضا، لكنّني أوجست خيفة مما قد

يصيبه، أو مما قد يحلّ بعمي إن أدّى الموقف إلى موت "الطاهر" على أيديهم القذرة، و ما مات إلاّ على يدي...
في تلك اللحظة المنكرة صفعته مرتين حبّا و حنقا و غيرة، فانقضّ عليّ بقبضتين مكبّلتين إلى الأمام يريد أن يستلّ مسدسي وقال:
- توّا كمل الشانطي.. قاتل و إلا مقتول...عرفت الحكاية والخبر ما ينقسمش، لا عاد ولد عمي و لا نعرفك.
و دار بيننا خصام، فلما يئس من مسدسي دفعني على المكتب فسقطتُ دامي القفا، و لم يكن من الصعب أن يحاول الهروب إذ كان مكتب المحقق قريبا من الباب. وهكذا وجد "الطاهر" نفسه في الشارع.
أطلّ المفتش فشاهدني مستلقيا نازفا. حرّك رأسه في دورات خفيفة مستهزئة، حينها بلغ الكره غايته. استللت مسدسي ولحقت به. لم يكن ثمة ما يمكن أن يخفيه عني و اجتهدتُ في الجري مخافة أن يبلغ الرّحبة فيختلط بالأغنام و الباعة.
الآن تمثل ذكريات المهزلة التي كانت سببا في خرابي. ما حدث في الصباح من مطاردة يتكرّر بطعم مضاعف و مهانة متوالدة.
خطوات "الطاهر" متأثرة بما ناله من ضرب و وجدتني أقترب منه. عشرة أمتار...فخمسة...فمتران...صوت أنفاسه يطرق سمعي. ثم وجدتني بوعي الكلب المدرّب أشهر مسدسي نحوه. وانتهى كل شيء.
انطلقت الرصاصة إلى رأسه فخرّ على الأرض مرة واحدة...انحنيت حتى رأيتني في عينيه، حينها ذكرته وتمنيت أن لا يموت، لكن كان كل شيء قد تقرر.
رأيت حول السوق طيفا أبيض، و لم أشكّ في كونه سيدي الحاج ناصف.
أين "الطاهر" الآن؟ ليسمع طرقاتي الضائعة على الباب في العتمة...وجوده و موته شاهدان على خيبتي الكبيرة.لقد كان موتك - يا طاهر- سببا في ضياعي.
أشعر بالتفاهة تسربلني، والعار يلاحقني كلما تذكرت موتك...كتلة من مخاز أنا...تبّا..تبّا...وددت الصراخ...وددت إخراج ما في جوفي من الغضب و الإحباط والندم...
لا أدري كم لبثت من الوقت واقفا أمام الباب، لكنني أسمع تجاوب الداعين إلى صلاة العشاء، صوتهم يقبل من كل الاتجاهات يخترق واحات النّخيل و العتمة الخانقة...
خطى بطيئة تتقدم باتجاه الباب المغلق. إنها خطوات أمّي هدّتها السنوات بعدما فقدت أبي و طال عليها غيابي...أتراها تعفو إن هي أدركت أني قاتل ابن أخيها؟...بأي وجه أتأمّلك يا أمي؟

بالأمس فقدت أختي "الزّهرة" ابتسامتها...كأنها لاحظت اضطرابي و قد حملت إليهم نبأ موت "الطاهر"، أو كأنّ الشّكوك تراودها؟ أو ربما أدركت أني أعلم شيئا عن مقتل "الطاهر" ابن عمنا؟.
لكم تعذّبت خوفا من أن يكون "المنصف" قد أخبر عمّي، كان المنصف بالحاضرة و سافر بعد مقتل الطاهر بيومين و هاجر معه "علي باش حانبه" الصديق الوفي للطاهر وصاحب الخلية الناشطة في حركة الشباب التونسي. كان الخوف يقتلني أمّا لياليّ فكنت أمضيها بين فرضية المعرفة والجهل، بين لون الحقيقة التي قد يعلمها "المنصف" و"باش حانبة" و وهم الجهل...و كم خفّ الحمل عندما علمت أن "المنصف" كتم ما قد يعلمه ولم ينطق حرفا واحدا...حتى رسائله كانت خالية من اللوم...لعلّه آمن بموتي كما آمنت به منذ قتلت ابن عمّي، أو لعله لا يعلم شيئا...كيف أواجه اليوم أمّي، و خالي الذي ينتظر أوبة ابن لن يعود، و عمّي الذي حرمته فلذة كبده، و أختي "الزهرة" التي قضيت على حلمها؟ كيف أنتم اليوم و الدّم في ازدياد؟
وقع خطاها صار أقرب...كان يوسف المنصري يصيخ إلى رنين "شرموخ" والدته الذهبي المتدلّي بين مشبكين سميكين كان والده اشتراه لها دَيْنًا من عند "حبرلّو" اليهودي و قد راح سعره يتضاعف بسبب الربا حتى عجز عن الدفع، حينها اضطرّ إلى التخلّي عن رقعة من بستان "العبيد" الواقع على طريق "شط السلام"...كان رنين "الشّرموخ" محبّبا إليه و هي تأخذه إلى حجرها في حين تشتغل يداها حثيثا لإنهاء مظلة السعف، و قد ظلّ ذلك الصّوت منذ طفولته مقترنا بأمّه ماثلا في وجدانه صورة لامرأة أفنت حياتها تعمل...بقي يوسف المنصري واجما و هو يسمع صوت أمه الضعيف:" منهو...منهو... يوسف؟ !"
المسكينة... كأنّ أحدا أعلمها أنها ستعيش لتشهد مقدم ابنها...فالحرب هي الحرب تجنيد إجباري و موت شبه أكيد...يأتي الجندرمة يفتحون الأبواب عنوة ينتشلون من يقدر على حمل السلاح لخدمة فرنسا الأم...كثيرون فقدوا حياتهم التي لم يفقدوها في الحرب، هاربين في بساتين النخل الضائعة.... و كان بعضهم الآخر يؤذي نفسه بقطع أصابع يده حتى لا يجند...و كنت المتطوع الوحيد الهارب إلى الحرب من ذكرى قتلي "الطاهر"...نظرته الغريبة الطفوليّة و الدّم يتدفّق من رأسه، تلك النظرة الملتصقة كالغراء ماثلة إلى الآن: مزيج من السخرية والإشفاق...خارت قواه دون تأوه، و حافظ وجهه على براءته المعهودة و نظرته الطفولية، بينما راح الدم يسيل من مؤخرة الرأس بهدوء ويتوغل في الأرض، أما

أنا فما استطعت أن أفهم كيف فعلت ما فعلت، قد توقف قلبي عن النبض و عجزت عن مواجهة نظرة الطاهر.
ثم لحق بنا المحقّق الذي استقدمه صوت الطلقة...قال مذهولا تبرق في عينيه نظرة نخوة:

"Enfin ! En voilà un qui veut être Français !"

"أخيرا! هذا واحد يريد أن يكون فرنسيا!"
و أردف مستنكرا:

" Mon fils !il fallait attendre les aveux "

"بني! كان عليك انتظار الاعترافات"
كنت مشتتا بين ثمن ابن عمي وثمن الاعترافات و أذكر قوله:

"On en a assez de problèmes avec ces nationalistes. Faut-il te rappeler que ça pourrait me coûter cher?"

" لقد اكتفينا من مشاكل هؤلاء الوطنيين، فهل علي تذكيرك أن صنيعك قد يكلفني غاليا؟"
كانت ابنة عمي "فاطمة" سبّاقة إلى سماع طرقي..وجهها سيحدد الكثير. سيتبيّن إن كانوا علموا شيئا عن مقتل "الطاهر" من "المنصف"، هذا لو أن "المنصف" ذاته قد علم ما حصل حقا...فأنا لم أعد إلى قابس مذ فارقتها يوم اصطحبت عمي لزيارة قبر ابنه "بالزلاّج".
كنت أجرّ هزيمتي عبر الزقاق الثعباني و أنساني همّي زيارة مقام سيدي الحاج ناصف. دلفت إلى بيت عمي ألقيت بنفسي في صدره و ألقيت الخبر. لا أحد صدّق موته فليس "الطاهر" أعمى و لا أصمّ حتى يدوسه "الترامواي"، و هي الرواية التي ارتآها المفتش "جوليان Julien "، فبعد مقتله قمنا بإلقاء جسده على السّكة فمر عليه "الترامواي"و كأنه ضحيّة جديدة.
سافرت وعمّي فزرنا القبر و أنا ميّت خزيا. أيكون علم من "المنصف" بعد ذلك ما حصل بالفعل؟...ما يكون الأمر لو أنّهم عرفوا أنّني قاتل الطاهر؟ أيكون "المنصف" أخبرهم؟ ضجيج الافتراضات يغتالني و أنا أحاول تمالك نفسي متردّدا بين الهروب والاعتراف. أقول أو لا أقول ؟ مرارة الاختيار وعظمة المسؤولية يحدواني نحو غور الحيرة...لهذا اليوم ولد الذين لا يشبهونني...
انفرج بابهم الذي يقابل مسكننا في نفس الحي الثعباني الضّيّق. و رفعت "فاطمة" رأسها. كان باستطاعتي تبين دموعها و هي تلفظها "و لد عمي". خلتها دموع اللوم أو العجز عن الثورة لولا أنها قفزت إليّ دون وعي فأحاطتني بذراعيها و

صدرها حدّ الإحراج...ثم انفتح بابنا فاندفعت أمي مشوشة بين الزغردة و البكاء...
ما هي إلا لحظات حتى امتلأ الحي بالرؤوس فقد هبّ إلينا أبناء خالي "محمد" وفيهم "فوزية البايرة " ابنته البكر المجنونة و نهض من كان في بيت عمي و أقبل الجيران مزغردين محمدلين. سأل يوسف المنصري عن أخيه "ناصف" فأخبِر أنه قد يتأخّر في القدوم...و سَمع همهمة متذمرة، ثم إذا عمّه يترحّم على روح أخيه الذي ما نسي صلاة، و لا وردا، و ما باع خمر الفرنسيين و لا خلّهم، و رفع إليه وجها بائسا معاتبا، فأحسّ بالموت و هو يسمع منه خطابا يصيبه من قريب ويدينه. فهم أنّ أخاه قد عبث كثيرا في غيبته. أراد أن يقول شيئا للمرة الأولى غير أن أمّه عالجت الموقف قائلة:"ربي يهدي. طيش صغار و توّ يمشي"، ثم أردفت مخاطبة ابنها البكر" ما تعمل شي في خاطرك، خوك راجل وقف في الحانوت وقفة الرجال". دخل الجميع إلى السقيفة. تحلقوا القرفصاء في ظلام يخترقه بصيص ضوء منبعث من بيت" أمي الخضراء" الولية الصالحة التي سكنت البيت مذ سكنه "سيدي الحاج ناصف "، و لكلّ في الحي قصته معها، أما أجلّ ما قامت به فهو إنقاذ "الطاهر" من شلل بيّن أقعده إلى سن الخامسة، و لولا أنه بات في "بيت أمي الخضراء " ثلاث ليال لما رتع مع الأقران في واحات النخل...حتّى يوسف المنصري يذكر الوليّة الصالحة و قد دخلت عليه محموما تجرّ قفطانها التركي الأخضر، مكتملة الزينة... كانت بالغة الطول تحمل بيديها " طشتا" فضيّا وطفقت ترشّ عليه ماء الورد، تدهن صُديْره المحترق..ويذكر أنه أفاق معافى...
نهضت أمه إلى بيت أمي الخضراء و فتحت الباب و كانت "فاطمة" تجلس قبله فشعّ وجهها بضوء ملائكي أتاح له رؤية الكحل ينساب من عينيها الذابلتين الفرحتين...
فرغت أمّه من إيقاد بقية الشموع للمرأة التي أعادت إليها ابنها من متاهة الحرب...كانت أمّه "حفصية" لا ترضى أن يكون بيتها محروما من بركة الأولياء، و لقد أسهمت في إشاعة الكثير من الأخبار حول قدرات " أمّي الخضراء " وهي عندها في عين المرتبة مع "سيدي أبي لبابة الأنصاري" و"سيدي عبد القادر الجيلاني" فليس إلى البيت داخل إلا وقد حمل معه الشّموع...
تحوّلت كتل السواد المعتمة المتكلّمة إلى رؤوس واضحة تحت ضوء الشّموع...كل الوجوه المألوفة حاضرة لم يغيّر فيها الزمن كثيرا فهم كما عهدهم منكفئون على مشاغلهم اليومية الفلاحيّة التافهة التي لا تعدو أن تكون بلحا و رمّانا

أو بعض الخضار، ما لا يكفي لسدّ الحاجات اليومية، أمّا عائلته فكانت التجارة مهنتها أبا عن جد و اكتسب دكانهم شهرة واسعة بفضل البضائع النادرة كقوالب السكر المصري و علب الشاي الهندي و كتل البخور العماني و كان أبوه رحمه الله يتاجر في كل شأن عدا خل العنب الفرنسي و حشيش" التكروري" و أسّس مع خاله "محمد" شراكة لبيع البضائع المهربة من طرابلس.
أحاطت بيوسف المنصري وجوه مبتسمة يعرف تفاوتها في العمر بخلل الأسنان، فهذا عمه علي أصغر إخوته تعرفه بنابه المكسورة لفرط ما هرس من اللوز في دكان أخيه رحمه الله، وهذه أمّه قد فقدت أسنانها إلا قاطعة واحدة بوسط الفك العلوي و قد استحقت بها لقب "المنيّبة"، و أما خاله "محمد" فقد استطاع تعويض أربع قواطع ضائعة بأخرى فضيّة اشتراها من تاجر مصري التقاه في طرابلس، و هو في غنى عنها فأغلب طعامهم الحساء خاصة في هذا العام المُمحِل الذي قرّرت فيه "الإدارة" الفرنسية توزيع المياه بطريقتها و رفع "المعاليم"...
كانوا يسألونه عن سر تأخره في العودة، والحرب قد انتهت قبل سنتين، و يستفهمون أهوالها و ما شاهده فيها، يستخبرون عن بلاء الألمان في معركة الخنادق. و هو يردّ اقتضابا لا تفصيلا، ويحمد الله على عودته للديار، و يطلب سرّا أن لا يطول الموقف...
طافت به و الخلق من حوله مجتمعون فكرةُ الاعتراف...حاول أن يُعدّ نفسه لإخبار الجميع بما حدث للطاهر في تونس الحاضرة وما وقع للمنصف. و جذب نفسا و هو يشعر بقلبه منفطرا. بحث عن الكلم فأعوزته اللغة و فقد سلاسة التعبير، فتكوّم على نفسه و نأى بوجهه عن الضوء الفاضح القادم من غرفة الولية الصالحة و هو يرتّب ألفاظا أرتِجت عليه أبوابُها، و القوم يسألونه عن أشياء بدا أنه لا يستمع إليها، و أحيانا ينتبه فيجيب برأسه في غير محل. وسمعوا خطوات ترْقِل أمام الباب فما شكّوا في أنّه ناصف أخوه قدم يترنّح...
وقف ناصف متفاجئا أمام الجمع خاشيا أن تكون قد حلّت بالبيت مصيبة و لكنّه سرعان ما عرف الخبر فألقى بنفسه في صدر أخيه العائد. تعانق الأخوان طويلا و ضاعت كلمات الترحيب والفرح في تهدج الصوت والبكاء. و رغم امتعاض يوسف المنصري من رائحة أخيه الغارقة في نبيذ النخل والحشيش، فانه خبّأ مشاعره واكتفى بالتربيت على كتفيه، ولاحظ وهو يعانقه شاربا طويلا و لحية محلوقة على عادات الشبان الفرنسيين، فخجل و قد تقدم ناصف في السن من إحراجه و ترك لأخيه متسعا للارتواء في غير تنغيص.

انشرح الجمع عدا خاله "محمد" إذ عجز محيّاه عن إبداء فرحة كاملة و ودّ لو يعود ابنه كما عاد ابن أخته. فطِنت "المنيّبة" لتجهّم وجه أخيها فأطلقت دعاء صادقا بأن يُتم الله الفرحة ويجمع شمل العائلة...نزل الدعاء على فؤاده كالسم.
سمعت أمه خشخشة في بيت "أمي الخضراء " فتهلل وجهها بهزة حاجبين و أقسمت أن الولية الصالحة تسمع النداء و تحمل البشرى. و راح يعضّ على شفتيه متمنيا أن يلقي ما في دخيلته و يرتاح من عبء التخفي والهروب .أطلق زفرة وأصاخ إلى أصوات بعيدة تردد أورادا و"حضرات" من كل لون ثم إذا مقام " سيدي الحاج ناصف" حضرة و فوف صاخبة...تململ الجمع ثم انسحبوا الواحد تلو الآخر ولبثت عائلة عمّه وخاله..."فاطمة" لا تقدر على خفض عينيها أو إيقاف بسماتها، في حين راحت أمها تقرص فخذها في حركة مكتومة مفضوحة.
ولاحظت أمّه ما يجول فضحكت وقالت مفتخرة "بربّي خلـّيها المغبونة". أمّا هو فكان يفكر في ما يتوجّب عليه قوله، ذاهلا عمّا حوله. وفكر في أن يخبر خاله بما حدث لابنه و لكنه كبح لسانه مخافة أن يجرّه الاستجواب إلى ما يكره....ازداد عنف القصف في الحضرة و أحس ضغطا قويا في قلبه..سكنته الدفوف و إذا قلبه نقرات ثقيلة ضاغطة..فقد الهواء و القدرة على التنفس و اختلطت الأفكار و القرارات في ذهنه يقول أو لا يقول ؟ إن فعل، فما رد فعل الآخرين؟ هل سيعفو عنه خاله؟ هل ستسامحه أمه؟ ثم إذا هو نهش للتردد...فاستسلم للنقرات تأتي قوية من الجدران والسطوح و نادى جده سيدي الحاج ناصف و أغمي عليه...

كانت " نوبة" الشّيخ التركي تأتي فصيحة عاتية لا صادّ لها في هذا المنزل الخرب الذي يعود إلى أوائل القرن الثامن عشر، أصواتها تهلّ من الشقوق من الحيطان من خشب النخل المتحلل...
و حدها كلمات النوبة تسافر إلى أذنيّ تعيدني إلى زمن الطفولة البريئة ورأيت "المنصف" يستند إلى تابوت جده، وأمامه رزم من الكتب بلغات مختلفة فيها القرآن وقصص الجان و قصائد تركية و ملاحم...ندخل عليه فيهدّئ عبثنا ببطولات عنترة أو سيرة سليمان يتصفحها بسبّابة شبه مقطوعة أكلها بعير في " رحبة " سوق جارة...
صارت نقرات الدفوف الآن أعتى و أراني أحمله على كتفيّ أطوف به في موجة القذائف والألغام، ما كنت أريد تصديق موته أو تصديق قتلي له..كانت الثقوب

التي خلفتها حربتي في جسده سيالة دافقة ترفض الانحباس و عبثا ضغطت عليها في محاولة لإيقاف نزيفه، كنت أولج جملا في سم الخياط...راقبته يلفظ نداء واحدا ثم شخر و أسلم الروح...لبثت قربه جاثيا زهاء ساعة وأنا أعتصر رأسه بين جنبي، و أهزّه أحاول إيقاظ جذوة الحياة فيه. ما عدت أفكّر في القذائف والألغام وكنت قد تخطيت –كالبغل- إليه الحدَّ الفاصل بين خندقهم وخندقنا، فبعد يوم من موت عبدولاي صدر الأمر بالتقدم لإخماد النيران الألمانية. طلعنا عليهم مكشوفين، معرّضة صدورنا للقنص، و لم نعلم أن المدفعية قد وقع تأخيرها إلى العمق الفرنسي...تُركنا لمصيرنا دون تموين أو ذخيرة، لا سلاح لنا إلا بنادق طويلة، بطيئة، يعود تاريخ صنعها إلى القرن الماضي.
لبثنا كالأرانب كلّما برز أحدنا من جحره اصطادته الرشاشات، حتى بدا لي أن لا أحد مات منهم إلا "المنصف"، و لا أحد نجا منا الآي...في ذلك المهرجان الصاخب قفزت إليه لم أتبيّن ملامحه فكلّ من ليس معك عدوّ، في الحرب قاعدة واحدة حفظناها منذ قُذِفنا إلى خندق الرماية:"يجب أن تقتل حتى تعيش"...
غرزتُ فيه حربة البندقية حتى أحسست بها تمزق ثيابه ولحمه وضلوعه. جعلت أثخِن و أطعن و قد أخذتني موجة خوف شُجاعة. و ما نبّهني غير صوته القادم من أعماقي، لفظَ نداء واحدا " يمّا" ثم شخر، و أسلم الروح. كانت الكلمة موجعة أذكرتني حيّنا وأهلنا. علمت أنني أصبت أحدنا فتوقّفت. رحت أمعن النّظر في وجهه الأليم تحت ضوء الحرائق والانفجارات...رجل عربيّ الملامح في الأربعين...شارب و عينان داكنتان، و شبه كبير بخالي "محمد"...
دسست يدي في جيوبه أبحث عمّا يبعد الشّبه والقدر المحتوم...وجدت ليدي في معطفه خشخشة، و فتحت كيسا كانت فيه رسائلي إلى ابن خالي "المنصف" و رأيت توقيعي، و شاهدت عنواني و رأيت رسائل ابن عمّي إليه...لم أصدّق ما رأيت، تفقدت سبّابة يده اليمنى فوجدت الإصبع الناقص ناقصا، لكم تمنيته كاملا يطرد هول الفكرة بأنّي قتلت بعضي.
لبثت أهشّ على فكرة موته كالمجنون، فليس من المنطقي أن يكون هو. أفلا يوجد في الحرب ألمانيّون ليموتوا عنه؟ كنت أهزأ من نفسي و أسخر من أن يكون هو. أنظر إليه، أتوهّم نفسا أو حركة، فلا أرى غير جسد في الأجساد الصريعة، و أقنع بوهمي فيطلّ عليّ إصبعه المعيب، ثم أفرك معطفه فتخشخِش رسائلي و رسائل "الطاهر" بين يديّ.
لم يعد في الإمكان تصوّر أمر آخر غير موت "المنصف"...رفعت رأسي فرأيت "سيدي الحاج ناصف" شيخا أبيض واقفا عند رأسي كلّما أضاءت الدنيا بالبنادق و

المدافع. كان يبرز لي ضاربا كفّا بكف...كم شعرت بالخزي بالمهانة و الحقارة و اعتقدت أن الكلمات باتت عاجزة عن احتوائي...بقيت في وسط الجحيم أبحث له عن مكان جاف قد تختاره روحه للعودة المطمئنة إليه...كالمجنون سرت في مدى الرماية متّكئا على بندقيتي و قد طرحته على ظهري. أحيانا كنت أسمع أنّة منبعثة من الأرض المعتمة إلا من ضوء الانفجارات، فأريحه على الوحل، و أنظر في عينيه فأرى خيبتي. كم تمنيت أن يقول كلمة واحدة، أن يتحرك جفناه، أو أن يظهر ما يدلّ على الحياة...وأنتظر حتى أملّ انتظاري...بي أمل أن يعود كما كان، أمل يدفعني إلى طرحه على ظهري وكتفي ومواصلة المشي. كنت أسير به متجها نحو حتفي، فلو أن همّا ينتشلني مما أنا فيه أو لغما يخلّصني من النّدم الذي أشعر به يمزق معدتي و يفتت أمعاءها واحدا اثر آخر...

كنت أدسّ في الأرض رأسي لأبعد عينيّ عن مشاهدة أطرافه، فتقع أمامي صور القتلى، رأيت رفاقي منتشرين بين خندقي الرماية وقع الذباب، ورأيت إصبعه المقطوع. لبثت أتحسّس طريقي في العتمة المشعة، أدوس على جثث فيلقنا. كم سرت به في ذلك الوحل الممتزج بروائح اللحم البشري، متعثرا بالأشلاء، حاملا وزري و لم أدر من أنا؟ ماذا أفعل هنا؟ كنت أهرب إلى الحرب نأيا عن يأسي و ندمي فما زادتني إلا ندما و يأسا، فما أنا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء، كتلة معدمة من الفراغ...

قال الكولونيل جان :

" Ecoutez ! Des innocents, Il n`y en a nulle part :ou vous tuez, ou vous êtes tués. Ils sont tous vos ennemis, désormais les ennemis de la France glorieuse. "

"أنصتوا! لا وجود للأبرياء مطلقا: فإما أن تقتُلوا، و إما أن تُقتَلوا. هم جميعا أعداؤكم، بل أعداء فرنسا العظيمة"

سيّدي الكولونيل "المنصف" ما كان عدوي. و أين كان أبناء فرنسا حين كنا في خط المواجهة؟ ساقونا في البداية إلى حفرة خندق التموين كما تساق الأغنام، فقلنا لابدّ أن نساعد في إعداد الطعام و توزيعه على الجنود البواسل. ثم ساروا بنا عبر حفرة أخرى باتجاه خندق المدفعية. فقلنا من الضروري أن نحشو المدافع و نعين على جرّها، غير أنهم عبروا بنا إلى خندق المواجهة حيث تكون راميا أو مرميا، تفصلنا عن خطوط العدو بضعة حواجز ترابية كالتي كانت توجد في بستان دار محمود بن جبر. عندما وصلنا كان الجنود الفرنسيون ينسحبون في رحلة زحف عكسية، و قد حملوا معهم أقنعة الغاز، فحيثما تصاعد الدخان صحنا منبطحين

" غاز...غاز..."حتى صار القاتل غير المنظور أداة للتخويف و السخرية، كلما أردت تخويف أحدهم صحت منبطحا، ثم بات كناية عن الكذب، و كان عبدولاي بسخريته أمهر "غزغاز".
كل ذلك و الفرنسيون ينسحبون حتى صرنا وحدنا في هدف الألمان الماهرين. قال عبدولاي و هو يقلد الكولونيل جان :
« La France va combattre jusqu`au dernier soldat »
"ستحارب فرنسا إلى آخر جندي" و أردف هازئا : " africain إفريقي".
ضحكنا جميعا. و سمعه الكولونيل جان فأمره بتنفيذ عشرين دورة في وضع النحلة. لبث المسكين يدور في الوحل و يقع ثم يعيد النهوض متشجعا بتصفيق أخيه و أبناء عمه السينيغاليين.
و بما أنني الـ" Caporal Chef الرقيب الأول" فقد كلِفت بترديد أمر العقوبة على مسامع الجنود و احتساب عدد الدورات، لكم آلمني ذلك فقد كان رحمه الله رفيقا بسيطا طيبا لا تفارق البسمة محياه، حاولت الاعتذار وتلكأت لكن عبدولاي ابتسم لي مشجعا. و بدأت أحتسب الدورات دامعَ العينين متهدّج الصوت، و الكولونيل يقهقه...و ما إن تمّت الدورة العشرون حتىّ كان الحتف في انتظاره: لقد أصابته شظية مدفع فانفلق رأسه ببساطة وتناثر دماغه على الوحل. بدا أن ذلك أرضى كبرياء الكولونيل جان فداس على يده في درس حربي جديد...
رأيت الكره في عيني أخيه مامادو و أبناء عمه...سمعتهم يتكلّمون بلهجتهم في سرّيّة و غضب، تحلّقوا حول مامادو في صخب و لجاجة و هو يجمع الدماغ، يخلصه من الوحل. و رغم أوامر الكولونيل و تحذيراته فقد ساروا إلى قتيلهم، فصلّوا عليه و دفنوه. كم وددت لو يكرهونني، لو أنهم قتلوني كما قتلوه و أكلوا من كبده. من سيطلب ثأر ابن عمي و ابن خالي الذي ظللت به حتى ضللت؟
لا غربان تعلّمني مواراة الضحية و لا نبش في الأرض...قدماي تغوصان في الوحل...البرد يلفح أصابعي ووجهي: برد أوروبي متمرد لا علاقة له بجمال مرسيليا ودفئها...أوصالي مرهقة و قلبي غائب...أشعر بقدميّ تعجزان عن الاستجابة...ركبتاي ترتعشان و وزري فوقي كم كان ثقيلا ذلك الانكشاري في ثياب الألمان بل كم كان كلّ ذلك ثقيلا...قريبان يقتتلان ينزفان من أجل الآخر يخوضان حربا هي ليست حربهما...قال "المنصف" في آخر رسالة له مستفهما:" هل علينا أن نقتل من أجل الآخرين كأسلافنا".
وهل عليّ – يا ابن خالي-إلا أن أتم مهزلة أسلافنا؟ ألم يكن كافيا أن يقتل اليمنيّ في كرسي يناله من الحبشيّ؟ أو أن يقتُل العراقيّ من أجل تاج يهبه له كسرى؟ ألم

يكن مجزيا أن يسفِك الغسّاني من أجل الرومي؟ تلك حالي فما أرقت غير دمي في تلك المعركة...
انتهى آخر نبض في عرقي، أحسسته يذوي وئيدا يائسا، وسقطنا على الوحل المثلج ميّتين....اقتربت منه و دسست رأسي في صدره أدفّئ برده بالدّموع...
ظلّ يوسف المنصري يبكي ابن خاله و لا بكاء. يسترجع ذكريات الشاب الصالح الذي كان بعلمه و دروشته مفخرة خاله في الحي...و زادت به الحمّى فصار دمعه المكتوم نشيجا...

كان يوسف المنصري ملقى على الأرض ينتفض مفتوح العينين و قد اختلطت عليه أصوات الانفجارات ونقرات الدفوف الآتية من مقام الشيخ التركي فسد أذنيه و أنىّ يأتي مثله الصمم ؟
امتقعت الوجوه..كانت أمه تستعد لتقديم حساء القمح بل لبثت تقرع الآنية ليفهم من حضر أن الوقت لم يعد مناسبا للبقاء وهي عادتها في إخبار الضيوف بقلة الطعام،غير أنهم لم يفهموا الرسالة و ظلت "المنيّبة" تقرع الآنية حتى سمعت صيحة ابنها، فهبّت كالمصعوقة إليه...فزع من كان حوله. احتمت "فاطمة" بأمّها وهي تشير إليه إشفاقا و قد نضبت عيناها من الدموع خشية أن لا يكون ابن عمها الوسيم منقذها من الشيخ الذي طلب يدها منذ يومين. أمسك عمّه بيمينه يتلو بعض الأدعية النبوية بصوت خافت رزين. أما خاله فلم يكن عنده شكّ في أن"باسم الله الرحمان الرحيم" قد أصابوا ابن أخته بمسّ، و قد كان خاله "محمد" على تواضعه بحرا من الأسرار عارفا بأعراض المسّ يحسن الجمع بين الدّين و الدنيا حدّ التناقض و الإغراب أحيانا، فصاح بأخته مكنّيا"الكانون يا بنت الكرش" فانتفض الكانون ببعض الجمرات الناعسة و زادت "الزّهرة" الفحم ونفخت حتى احمرّ...
كانت "المنيّبة" تجري من ركن إلى ركن حائرة ثم عادت لتخبر أخاها أنّها لم تجد بخورا فزفر متأففا:" أحّيه ". و ضرب على جدار السقيفة القبلي بيد فارغة و صاح " يا سيدي الحاج ناصف " ثم ألقى ما بيده فإذا لسان من البخور يسدّ الأنفاس...راحت الأمّ تنادي الجدّ التركي فأخرسها الأخ واثقا عارفا و قرّب الجمر إلى الوجه الذاهل...انتبه ناصف بنصف وعيه إلى الجلبة فخرج من الكنيف يجري و قد نسي "سرواله العربي " معلقا...هرع إلى أخيه مرتعدا...
تجمّع الكل حوله في كومة بشرية مضجرة مشفقة. ظلّ خاله يكلّم ما يُعتَقد أن يكون جنيّة بجمل بروتوكولية تنبئ عن خبرة. وضع يده على رأس الغائب و انبرى يستدرج ساكنته بعد أن غطّاه ببخنق والدته قائلا:

"سلام بيك سلام ،هاتي كلام عربي عجمي سرياني تركي ،أنا خديم لك بكل اللغات ،ادخلي بسلام، و اخرجي بسلام".
رفضت الأم أن تبدو بلهاء في" ديوان" ترجوه فأسهمت ببعض الجمل فكانت ترحب "مرحبا بنت الشيخ ، لا تخافي أنت في بيت الصالحين " حتى إذ اشتدت بابنها الرعدة طالبت ساكنته بالهدوء "آداب آداب بنت الشيخ، روفي بالولد "...و الخال يحدجها بنظرات كأنما تدعوها إلى الكفّ عن التدخّل في ما يعتبره اختصاصا. لم تستجب الجنّيّة و لكن الأسئلة المتتالية ما فتئت تتراقص في ذهن يوسف المنصري.

أحسست بلفح في وجهي. عالجت نفسي للنهوض، فوجدت جسدي خائرا وانتبهت فإذا "المنصف" ممدّد قد غطّى الثلج قسمات وجهه و ما تبقى بدا لي أزرق تحت ضوء الفجر...في الجوّ أصوات موحشة لذئاب جائعة وشجر السّرو يلتمع بحبيبات الثلج، والرّيح أهزوجة المنكوبين...
جلست أنظر إليه بعد رحلة مضنية من الشّقاء...كنت أحمله على غير هدى في حقل الرماية بين خندقين كأني غير قادر على أن أكون في أحدهما...أنظر في انتسابي حائرا فلا استطعت أن أكون فرنسيا ولا حافظت على جلدتي فما النفع إن

كان الدم المراق دمي؟ و ما النّفع إن كنت أحسّه و لا أستطيع تجاهله؟ وددت لو أنني كبقية من تغير، لو أنني أنسى من أكون، لكنني لا أنسى، و ربما كنت أسوأ من تغيّر...يا لها من ضريبة أن يكون الإنسان فرنسيا!...تفلتُ عليّ مرتين، و غرّست رأسي في الوحل، و نظرت فإذا هو كما هو ممدّد على الثّلج ينظر إليّ بحزن مقيت.
ماذا عساي أفعل بجريمتي؟ هذا القدر يلحّ في المهزلة، صُدف وغرائب يفترض أن لا تحدث إلاّ في أقاصيص "المنصف"؟ أحبابي يندفعون إلى طريقي ، يعرقلون مسيرتي ،يهرولون إلى حتفهم على يديّ... تبّا لمهزلة ترحل بالمنصف من مقام "سيدي الحاج ناصف" ليموت على يدي في أرض الغربة..لقد كان حريّا به أن يلزم التابوت يستند إليه يقرأ قصصه، أو يلزم تركيا بنسائها الفاجرات و إمائها ونراجيلها و مواخيرها. ماذا حملك يا منصف إلى الحرب؟ وماذا أقول لأهلي ؟ و ماذا أروي لهم عن مقتله ؟...بالأمس خزنت سرّي وابتلعت مصيبتي و لم أبح لغيري أن يشاركني همي، وهربتُ إلى الحرب و أوغلت في الغربة، فما رجائي وقد تناسل الهم و تورّمت الأسرار...
"المنصف" راقد غافل، و غدا يكون بطلا في ألمانيا، كما اعتدّ بطلا تونسيا يسهم في حمل الأتراك على مساعدة "الطاهر" و أصحابه..لم يكن حضوره كثيفا ولكني أدرك الآن أنّ له يدا...ذلك الانكشاري التركي بنصف تونسي رجل كهل بشاربه الكثيف وطربوش مبالغ في الطول...لقد التقيته بعد هجرته مرتين: كانت الأولى بعد أن اعتلى منصبا في الجيش التركي جاء مع زوجته "زبيْدة ناصيف" امرأة خدّاها كتفاحتين ألمانيتين و هي ابنة السيدة "خاتون" المرأة التي تبنّته. كان أمام الباب واقفا و فتح البويب فدخل و تفقّد جدران البيت وقبّلنا و خرجنا معه إلى مقام سيدي الحاج ناصف فصلى و زوجته ركعتين ثم سرنا معه حتى باب البحر...كان يسألنا عن الدراسة فأجيبه عن الأدب الفرنسي و شعرائه و كتّابه و كان "الطاهر" يحدّثه عن حركة الشباب التونسي و علي باش حانبة و الثّعالبي والصّحافة...والتقيْته في الثّانية، لكنّه لم يقصد بيت جدّه، لقد كان في شأن مختلف. أعلمُ يا منصف أنها ما كانت زيارة شوق و عناق...
فقبل اعتقال "الطاهر" بيومين اشتاق يوسف المنصري إلى ابن عمه، وكانا قد اختصما و افترقا فسكن "الطاهر" قرب القصبة و أما ابن عمه فقد شارك بعض زملائه من الجندرمة بيتا في "رحبة الغنم" قريبا من الـ" Centrale المركز" فسار إليه و كان في نيته أن يصطحبه إلى "باب البحر" بعيدا عن جلبة الأحياء الشعبية. دخل زقاقا مظلما، و طرق بابا ضيقا قد أفقده المطر لونه...خرج

"الطاهر" من مقصورة قريبة مسرعا مبتسما وكان يتم جملة لولا أن شاهد ابن عمه فاغتيلت الكلمات وامتقع لونه وتلعثم فأمهله يوسف برهة ثم قفز إليه معانقا غافرا...
لكنه كان باردا على غير عادته مترددا..دلف يوسف المنصري إلى البيت مازحا متصورا أن به فتيات، و "الطاهر" يجذبه من كسوته. و دخلا المقصورة فالتقت الأعين...كان "المنصف" جالسا متكئا إلى "شيشة" جلبت له من مقهى قريب، وحذوه علي باش حانبة يتحدّثان و انكتم الصوت فقام ابن الخال مسلما وهو يحدج "الطاهر" بنظرة قاسية.
شعرت بنفسي ثقيلة باهتة، "زحافا في بيت ركيك " كما يقول "الطاهر" رحمه الله..تحاملت على نفسي بكلم تافه مجتر، وصار اللقاء أسئلة أطرحها عن الأحوال والزوجة والأبناء، و عتابا لعدم إعلامي بموعد وصوله و هو يجيب بنبرات متقطعة. أما الضّيف الثاني فظلّ يمعن النظر في السّقف. ثم جاء وقت سكتنا فيه جميعا و تكلمت "الشيشة" طويلا...و لمّا امتلأتُ إحراجا رحلت تودّعني وجوه عابسة..كنت حينها اعتقدت أنهما غضبا لأني رغبت عن فاطمة وعزمت على الزواج من "جاكلين" ابنة المفتش ولكنهما كانا في شأن آخر. و فكرت في الرّجوع إليه لأوضّح له منافع الاقتران بتلك الفرنسية شبه المختبلة، و لكن كان صوت الشيشة في رأسي حائلا، ثم إنني وضحت له المسألة في آخر رسالة بعد انتحار الجنرال. ولقد أسررت إلى "الطاهر" بنيّتي سابقا فما نفعت المبررات و ما أجابني إلا بسؤال واحد "وفاطمة يا يوسف؟" كان يردد سؤالا لا جواب له...
وكان "الطاهر" قد لاحظ تغيّري غاضبا فقلّ حديثه إليّ، غير أن فكرة الزواج أفاضت الكأس وعجّلت بالقطيعة..كم كنت بغلا لا يفقه !
لماذا سلكت طريقي بهذا الحذاء؟ تناسيت "بلغ" الآباء وانتعلت الأحذية وأرقت دمي. لو للرجوع سبيل، لخلعت رداءهم، و قبّلت الأرض، لحملت سماد الكنيف بيدي...تبا لي كم كذبت على نفسي و على "المنصف" ! كنت أكتب إليه أخبره بوفاة "الطاهر" تحت عجلات الترام حينما انزلق وكان يستعد للصعود، وأحسبه يعلم...يا إلهي أكان يعلم كل تلك المدة ما حصل فعلا؟. ولِمَ لمْ يخبر عمي. لا بد أن بعضا من زملاء "الطاهر" روى له ما حدث. أيكون باش حانبه هرب إلى تركيا دون حمل الأخبار؟
رأسي مرجل و قلبي خواء. لا يمكن لعمي أن يخبّئ مشاعر الكره عنّي. إنني أعلم صدقه، و حبّه "الطاهر"، و لو علم لكنت في الأموات. لا بدّ أن "المنصف" كان حكيما فلا يخبئ هذا السر إلا الأبطال...

ما ضرّ لو أنه دافع كما يدافع الألمان؟ ألم يكن أسلم لو انفجرتُ كما انفجر عبدولاي أو مزقني ابن خالي قبل وصولي إليه؟ لماذا بقيت لهذا المصير الذليل ؟..."المنصف" جامد هامد والنار تكوي أضلعي "أين الغربان تعلّمني كيف أدفن أصبعك المعيب؟ لهفي عليك تموت في أرض غريبة، بل لهفي عليّ أعيش من دمي المراق"...

وضع يوسف المنصري يده على صدر ابن خاله يتفقد نفسا خامدا...نظر في عينيه فخُيِّل إليه أنه رأى حركة من شفتيه ففرك جفنيه و أمعن النظر ولا حراك...لكم أحسّ بالخوف من أن ينهض منتقما أو تقوم هامته إليه...اقشعرّ بدنه

و هو يتأمل الجسد المضرّج بالدماء...انضافت إلى مشاعر الحزن دفقات من الرّعب ذكّرته ما كان يحكيه رفاقه من مشاهدة بعض القتلى يتنزهون خلف خندق الرماية فاغري الأفواه. و لقد نبّهه عبدولاي قبل أن يموت بليلة إلى أحدهم، جندي فرنسي تعرفا إليه من قبعته المبالغة في الضيق المائلة إلى الأمام، لبثت هامته ترقد على الوحل وتنهض كأنّما تحاكي ميتتها...بقيتْ معه تلك المشاهد ليالي خائفا من قيام أحدهم في طلبه. و تعلّم من عبدولاي أن يأكل الثوم و يخفيه في ملابسه اتقاء الموتى أن ينهضوا أو يفتكوا به في نومه، كلّ ذلك لا يعادل رعبه من جثة ابن خاله الهامدة، والشيخ التركي يظهر و يتلاشى ضاربا بكفيه متحسرا متوعدا. وجاء صوته في أذنه "علاش يا يوسف؟ علاش؟" جملة ظلّت تتردد في أذنيه فيجد لها في جسده المنهك رعدة قوية و الفجر حولهما موحش الخيالات...بدأ الضوء ينسلّ من جبّة الليل. ربت على الأرض أطراف القتلى. كانت الأزرار الذهبية أول ما يظهر من الرفاق تتلوها الأسلحة فالأطراف و آخر ما يتوضّح الدم المائل إلى السواد، رأى حوله رؤوسا مقطوعة و أجسادا مشطورة مشتتة وعيونا ناتئة و أفواها حافظت على آخر الحروف المنطوقة و كان "المنصف" جسدا صريعا في بقية الأجساد. نظرته القاسية الحزينة المزدرية تعرّيني توقفني أمام حقيقتي نصف فرنسي بدم حرام و اسم مزيف...نظرة مرّة تشفق عليها لأنها منك، ثم تعتادها رغما عنك، ثم تتحاشاها هربا، ثم تكرهها، و تكره أن تواجهك بما أنت عليه من السوء...

كان يوسف المنصري يلعن اليوم الذي حلم فيه بالأزرار الذهبية، و اللحظة التي خالف فيها "الطاهر" مصرا على الانتساب إلى الجندرمة...و لكن كل شيء انتهى الآن ولابد لرحلة التّطواف بجسد "المنصف" من حد...

دسّ رأسه بين يديه متحاشيا نظرة قتيله، صار فكره مرتعا لقرارات مؤجلة و فكّر في أن تكون نهاية "المنصف" حدّا للقرابة الذبيحة و بداية لشيء بعيد قد يكونه لو يستطيع...

غالبتُ نفسي، امتدّت يدي إلى عيني ابن خالي لأغلقهما هربا من تلك النظرة الحزينة. فما استطعت لها ردّا...حاربتُ وهني مستجمعا ما بقي لي من الجهد...شرعتُ أحفر بيدي اليمنى المجهدة أريد أن أتخلص من وزري الذي قد ألحّ عليّ في النّظر...كانت البندقية ضرورة في مثل هذه الحالات، لكنّني لم أعد أعلم أين تركتها طوعا لا كرها و قد ثقلت عليّ جثة قتيلي...لم يساورني الندم لفقدان السلاح فقد كنت أتمنّى الموت و لا أجده، كأنّ القضاء أخطأني لتتم كلمة التاريخ: فهل عليّ إلا أن أتمّ المهزلة؟

صور "خويا المنصف" و هو يقرأ لنا في المقام الطاهر تقبل من كلّ شريان متعب تثقل عينيّ، و أنا أحاول تبيّن عمق ما حفرت...كنت أهرب من دم ابن عمي فما صنيعي و ما أجدى الهروب؟ قريبا سوف يعلقون على كتفيّ وأعلى صدري الأيمن بعض النياشين جزاء البلاء المبين؟ و سوف يتاح لي أن أروي للبلدة إن أنا عشت صورا لما يعتبرونه بطولة، و لكن أية بطولة يروي من أخطأ هدفا و أصاب قريبا؟

لبث يحفر لاعنا الظروف التي ألقت قريبيه في طريقه: فمن كان يتصوّر أن "الطاهر" العابث سينخرط في "حركة الشباب التونسي" بل و يصبح معينا على تحرير الصفحة العربية من جريدة "التونسي" وأحد المحرّكين لحوادث "الزّلاّج" و"التّرام" من بعدها؟ و لا أحد كان يفكر أنّ ذلك الشاب -الصغير الذي حملته السيدة الشريفة "خاتون ناصيف" معها- سيصبح انكشاريا كبيرا و حليفا للألمان يقاتل معهم فيقتله ابن عمّته. ورطة بل مهزلة مرّة يأبى القدر إلاّ أن تتم فصولها المؤلمة.

جسست عمق الحفرة دون نهوض فإذا هي ذراع أو يكاد. وبما بقي من الجهد سحبت "المنصف" إليها في ملابسه دون غسل: فقد استحقّ أن يكون شهيدا بعد طول دروشة وقراءة وحب لتونس و "من كان شهيدا فلا غسل له". وبدأت أحثو التراب عليه مشيحا عن نظرته الحزينة.

فجأة توقف عن دفن ابن خاله و قد أفزعه أن يكون قاتل الشهيد ؟ أم ما يكون حكم من قتل على يدي قريبه في حرب لا تعنيهما؟ و من على حق؟ و من على باطل؟ أبعد يوسف المنصري كثيرا من الأفكار التي طافت به فهو لم يتصوّر يوما أن يكون بالسّوء الذي يدفعه إلى الدّوس على دمه حتى لو كان ذلك من أجل

فرنسا. نعم لقد أخبر المفتش بالأسماء التي ذكرها "الطاهر" قبل موته عدا خاله "محمد" ما اضطرّ علي باش حانبة إلى الهجرة نحو تركيا صحبة "المنصف"، بل أفشى كثيرا من أسرار زملائه العرب والفرنسيين في الجندرمة تحت ضغط المفتش جوليان Julien ، وهو لا ينكر أنه كان يترجم أقوال بعض المتخاصمين من المواطنين خطأ و لا ينكر أنّه وشى بالرّقيب أوليفيي Olivier الذي كان يخون الجنرال كلما أمره بحمل متاع إلى بيته، و لا ينفي أنّه سقط في أحابيل زوجة الجنرال التي هدّدته بزوجها إن هو لم يستجب، هو لا ينفي كلّ ذلك، لكنّه ليس بالسّوء الذي قد يدفعه إلى الدّم الحرام...
بقي يفكر طويلا...بدأت الشمس في الارتفاع فقرر أخيرا أن يترك أمر استشهاد ابن خاله لخالقه يقرّه أو يحرمه إياه...
سحب "المنصف" و نبش التراب الموحل بأظافر مائلة الى الزرقة...نزع عنه معطفه الطويل و سرواله...هزّته نوبة بكاء وخجل من عورة ابن خاله. و هاله عدد الطعنات التي تلقاها، كانت منتشرة في جسده كلوما عميقة اتخذت لونا أسود بفعل البرد.
بدأ يوسف المنصري بالضغط على بطن ابن خاله محاولا إخراج ما قرب من برازه على طريقة " غسّال البلدة " لكن لا شيء خرج رغم أنه تفقد مؤخرة قتيله بعينين امتلأتا دمعا. ثم بدأ يمسحه بالثلج متعوّذا، مبسملا. و اهتدى إلى الإصبع المعيب فراح يفركه باكيا حتى أحسّ حرارة الملح في جفنيه...ثم تذكر أنه لم يكن طاهرا فتيمم بعناية. و كرر نفس الطقوس. حتى إذا فرغ، ردّ عليه أدباشه، و صلىّ عليه بصوت متهدج شبه مكتوم...ثم حثا عليه التراب و ألقى قبعته عند رأس الحفرة...فكانت تلك المرّة الأولى التي ينبش فيها قبر "المنصف"...كانت الحفرة ضيقة ولم ينتبه إلى أن بعضا من المعطف بقي خارج القبر. لبث مطرقا و قد أحسّ أن وزره انتقل من كتفيه إلى قلبه...ارتفعت الشمس مقدار شبرين وأحسّ البرد يغمره فالثلج يضحي أبرد والحقيقة مشرقة...أسلم لليأس أوصاله...استلقى على الأرض النديّة الرّطبة مستعدّا للموت...

استرختْ أعضاؤه و هزّته الحميّ فاعتقد من بالبيت أنه هالك لا محالة و أن الجنيّة ساكنة غير مفارقة. و سمعت الأم ابنها يهذي بالموت ويذكر "الطاهر"
و"المنصف" والكولونيل فصرخت ولكن الخال أخرسها بصفعة.فصاحت ثانية زاعقة للمرة الأولى في وجه أخيها " وكْ..سيِّبني.. الولد باش يموت " كسف الأخ بصره وقد شهد بأمّ عينيه تعكّر الحالة. جلب ناصف دلوا ملأه ماء من جرّة أسنِدت إلى جدار "أمي الخضراء " ثم حاول أن يضع رجلي أخيه في الدلو رغبة في طرد البلاء. فمنعه عمّه خوفا من انتقام الجنية إن هي أخرجت بالقوة ، وذلك ما حدث منذ سنوات لابنته" فوزيه البايرة" فقد مسّها في الكنيف جان فخرجت تصرخ عارية من كل لباس. سارعت أمّها بسكب الماء عليها غير أن الجان صفعها منتقما فأذهب عقلها و توقف الخطاب عن طلب يدها بعد أن كانوا متزاحمين.
احتدت الحضرة وسمعت الأصوات تردد :
″ س ً 9 ا □ 9 □
ا و 9□ □□ F9 □ ۿ r ″

″ غس□ û ن□ ق□ ج □□ ضد□ 9 □
ا و □ □□ F □ ۿ r ″
فانتفض يوسف المنصري بكاء، وبكى الجمع معه وما فيهم إلا مفارق لحبيب ،أو دفين السر. أخفى خاله "محمد" دموعا انفرطت من عينيه وأشار عليهم بضرورة نقله إلى المقام فاندفعت "فاطمة" وانحنت على ابن عمّها تريد مساعدته في النهوض. وشاهد أبوها تسرّعها فظلّ يتنحنح في رسالة أصرّت البنت على عدم فهمها، فعالجتها والدتها بقرصة شديدة، فتأخّرت. وتقدّم أخوه..تعاون مع عمه و خاله...زمّوا الشفاه محاولين رفعه، لكنهم عجزوا، فقد كان العمّ و الخال واهني العظم أما ناصف فكان متأثرا بما تناول من حشيش. تهاوت فكرة رفعه على الأيدي و الأكتاف.
كان جزء منه يقاوم حركاتهم و لا يستجيب لها و لعلّه شعر بما تبقى له من وعي أنه فقد أهليّة الارتفاع...ظلّوا يجذبونه من أطرافه المختلفة ويضغطون على إصاباته العديدة. أخذوا في جرّه. فتحت "المنيّبة" البويب و كانت "عارضته" السّفلى مرتفعة بمقدار ذراع، فعلقت بها رجلاه، قفزت "فاطمة"
وخلّصتهما...تواصلت رحلة جرّه في الزّقاق الطويل النديّ بفعل الكنس، فقد

كانت النّسوة في الحيّ يخرجن بل يفتعلن كلّ مناسبة لكنس أرضيّة الزقاق و رشّها بالماء ومشاهدة القادم و الذاهب حتى صارت مواعيد خروجهن أمام الأبواب معلومة، فهنّ في اغتياب مشوّق و خصام وتنابز أو ضحك يغري الرجال الخجلين...

كانت رجلاه تتدلّيان على الأرضيّة الموحلة. استداروا به شمالا مع المنعطف فإذا هم على عتبة المقام "الطاهر". وجدوا الباب الضيّق مفتوحا فدخلوا، فإذا هم في سقيفة رحبة قائمة على أربعة أعمدة حجريّة رومانيّة الطابع و قد جلبت من موقع تاريخيّ قرب مقام سيدي أبي لبابة الأنصاريّ واتخذت الجدران لونا أبيض ناصعا، تطلّ على المقام غرفة صغيرة بها تابوت الشيخ ومصلّى للزائرين...استندت إلى جدار الغرفة الخارجيّ نسوة جئن يشاهدن "ديوان" الشيخ التركي و وقف على الجانب الآخر مجموعة من الرّجال جاؤوا للتفرّج على النّسوة. في وسط السّقيفة تحلّق أصحاب الدّفوف وقوفا. و هو غائب، تذهب به الكدمات بعيدا إلى عنف الاعتقال، و يتلاعب به اسم الشيخ القادم من الأفواه المفتوحة و الدّفوف الصّاخبة والتاريخ...

كانت الشمس تميل نحو المغيب من نفس اليوم أو من اليوم الذي يليه فقد تشوش الزمن. و ما علمت قدر ما أمضيت من الوقت حذو قبر "المنصف" غائبا، و لكنني أعلم أن الموت أخطأني من جديد لأتمّ المهزلة. حبيبات الثلج تواصل انثيالها

الخفيف...عيناي بين وعي ونعاس تغالبان النهوض ثم تستسلمان لنوم أغنج فهو راغب عني قريب إلي.
أسمع صوت المدافع خلف خنادقنا في العمق الفرنسي، بينما أصوات ألمانية قويّة الوقع محجوبة تتعالى حولي وتمنعها عنّي الجثث الكثيرة..دسست نفسي في حفرة قريبة غير عميقة و جذبت إليّ جثّتين فجعلت رأسي على بطن إحداهما و الأخرى فوقي كالرّداء. دهنت وجهي ببعض الوحل و قطعت النّفس...
لا مجال للشكّ في أن الألمان قد انتصروا في تلك الموقعة الصغيرة التي شاء فيها الفرنسيون أن تكون تمويها: فقد نقلوا عتادهم إلى جبهة أخرى وظلوا يوهمون أعداءهم بالمكوث...و كنا نحن ثمنا لذلك التخطيط....أرجل كثيرة تحيط بي تتأمّل الجيف و تجهز على الجرحى بالحراب و الرّصاص...اقترب بعضُها فصار النّفس المكتوم نشيجا متهدّجا. ولحظت الجثتين اللتين تواريت بهما ترتفعان مع كل شهيق وزفير...قاومتُ حاجتي إلى الهواء و ضغطت على الرّئتين حتى خلتني منفجرا...الأرجل تتقدّم نحوي ببطء...استعددت للموت. إن طلقة واحدة من الرّشاش الألمانيّ قادرة على جعل صدري كغربال الشعير...الأرجل ثابتة حذوي تتكلّم بنبرة ضاحكة مقهقهة...النّفس مرجل مضغوط...وددت حينها أن يتمّ كل شيء، و وددت لو أتسلّح بالشجاعة لمواجهة مصيري فأريح نفسي من الاختباء لكنّني لم أفعل...
كان وجهي في بطن قتيل أسود...شعرت بفمي يغوص في جرح مفتوح حد مذاق الخراء، طعم لزج كريه، و نفس محتبس، وأرجل ثابتة مقهقهة تسخر من خيبتي. سمعت تحفّزا وفي جزء من اللحظة أحسست بساقي تتمزق...كم هو مؤلم أن تصاب ولا تصرخ..شعرت بالموت مرتين طعنا، وخوفا من أن أكون قد تلقيتها بشكل مفضوح...جرعت كلْمي وكلِمي وابتلعت ريقي. سمعت أسنانا تتكسر ببعضها، ولا صراخ...كانت طعنة أخرى قد اخترقت القتيل من فوقي و انقطع وقعها غير بعيد عن عنقي. متّ، ذبتُ، ذويتُ، كأنّي ما كنت أبدا، جثة هامدة أنا و قلب جبان...
مرّ وقت عصيب قبل أن أشهد ابتعاد الأرجل و كنت قد نجوت....لماذا نجوت وأنا من عليه دفع الثمن؟ أنا الباغي الغبيّ، بائع إخوتي أنا، ودمي المراق.
كنت مترددا بين الصّمت و دعوتهم لاغتيالي، و طال تردّدي ففاز جبني على ندمي وعلمت حقا من أنا.
كيف أمضيت ليلتي بين وقع الأغاني و عواء الذئاب تنتشر على جزور مشويّة و أخرى مسلوخة؟ و تقترب خشخشة فأفتح عينيّ في الظلمة، كانت أشباح منكرة

تحيطني، و خلت أنّ مَنْ فوقي و تحتي يرتدون عليّ. الأشباح منتشرة ناهضة باركة تتشمّم الموتى ضاحكة..لبثت مكاني يقتلني التردد وتغتالني الأهازيج المنكرة، و شيخ أبيض اللحية يطوف بي و قد صارت رؤيته أوضح ثم صار يمشي القهقرى رافعا يديه إلى السماء و جبته "الحريرية "تسافر مع الريح...بدا مع الوقت أن الأصوات تخف تدريجيا من حولي، كان جدّي يسأل لي الخلاص، فلو سألت لي الموت يا "سيدي الحاج ناصف" لكنت عندي أعذر.
توقف نزيف الدماء عن ساقي وتكوّنت حول الجرح طبقة يابسة، مددت يدي متحسّسا، فإذا كلم بحجم ثلثي سبّابة وعمق يعلمه الله...الدّنيا ظلام حالك...عتمة توارت خلفها أصوات الانفجارات البعيدة...عواء الذئاب الموحش يأتي مع الريح في شبه احتفال باك أو عويل تقشعرّ له الأبدان...نفضت عني خباء الجثث الكثيفة. امتدّت يميني تمسح على تربة "المنصف" مودّعة فقد عزمت على الهرب من جديد...
نهض بنصف قامة، رجل مصابة و أخرى أعدم البردُ لجاجتها وتقدم ببضع خطوات مريضة بين الحفر و الأشلاء و لكنه توقف و قد ضجّ رأسه بألف سؤال، فأين يمضي؟ أيتقدم نحو العدو ؟ أم يعود القهقرى ؟ أيرجع إلى الخنادق الفرنسية ؟ ومن أدراه أنها مازالت كذلك؟ و خيِّل إليه أن الأرض بما حوت "ألمان" أعداء، و أنّ المشكلة تكمن في ثيابه العسكريّة اللعينة المفضوحة. أفليس السّير بلباس ألمانيّ أيسر للتّمويه من الخوض في الخطر بزيّ عسكريّ فرنسيّ أزرق فاضح؟ و فكّر في أن الحفاظ على ما يلبس رديف القضاء، فعاد على خطواته مستغفرا خجلا كمن يعدّ نفسه لعمل شنيع أو يجرب وقع ما عزم عليه. وأعاد الانحناء يتحسس قبعة ابن خاله بين السيقان المقطوعة و النجيع اليابس فتعرف إليها.
راح والظلمة تستره ينبش القبر من جديد حتى صار "المنصف" بين يديه فأخلعه معطفه و لبسه فإذا الرسائل تخشخش محفوظة من البلل. والتقط القبعة فوضعها على رأسه. و ردّ التراب عليه كارها أن يعيد تغسيله. انقفل قلبه عن الحزن أو الأسف، وحدها فكرة الهروب تلحّ عليه والخوف رداء، فكانت تلك المرة الثانية التي يضطرّ فيها يوسف المنصري إلى نبش قبر "المنصف"...
أعاد النهوض متقوّيا على رجله المصابة، أحسّ دفق الدماء يرتدّ إليها، وقلبا مرتعدا ألهم صدره النشيج...إلى أين المسير؟ ضاع الأمام و الوراء في أستار الليل فهو في كثافته فراغ مرسل، لا شيء يدلّ على الجنوب أو الشمال، و ما هي إلا كتل من السّواد تبدو أمامه غير بيّنة، يفتح عينيه ليتمعّن فيها حتى تدمعا، و يخيل إليه مع الدموع أنه يرى شيئا فيبالغ في فتحهما، فلا تلبث أن تعود الأشكال

العنيدة المتراقصة الباهتة إلى الخفاء....فأسلم جسده للطلقات تأتي من حيث شاءت
فلا بد للطلقات من رجال...يمّم وجهه شطر الحرائق تتصاعد حينا و حينا
تغيب...و الريح تعزف حوله أهزوجة متقطعة فهي صفير يحاكي تعرج الأجساد
المنتشرة...و زاد انحناء وهو يسمع معدنا يحك أو نابا تهرس وكاد يسقط...و
أحس طراوة تحت رجليه...بل حركة فصاح و تفقّد ما يضرب به فما وجد غير
الهراء...صاح مروعا و سمع صدى صيحته بل سمع من يصيح معه و إذا هو
يهوي من شدة الخوف و يسقط بين كتلتين مقرفصتين وأيد منهمكة مستسلمة...فتح
عينيه جيدا...تراجع قدر ذراع إلى الخلف والأيدي منخفضة تحرك سكينا أو
تمسك حربة في تحفز تتوقع منه شرا، و هو ميت أفقده الرعب حركة
اللّسان...أطلقت قذيفة مضيئة على التلة المجاورة فاتخذت بها الأشكال تبرجا
وراحت الكتل تتوضّح في دلال مقيت فكان ختام الهول...
شاهدت بأمّ عينيّ مامادو و ابن عم له جاثمين على جثة الكولونيل التي لا أخطئها
فطالما احتككت به، و قد ورث من الجنرال إبقائي بالباب منتظرا في البرد و
الوحل خلال الأوقات التي يقضيها في حفرته الدافئة يراجع الخطط ، كانت خوذته
الفخمة تمنحه هيبة و سلطة قاسية...هي ذي هيبته والتراب. مامادو عاكف على
الجثة يقطع منها و يأكل ضاحكا باكيا وابن عمه يربّت على كتفيه متمتما بكلمات
مبهمة ثم تفرّغ إليّ فصوّب نحوي بندقية، تشجع بالظلام وقام يريدني.
أيقنت بالحتف، فشرحت صدري مستعدا للموت، غير آسف على ضياع ما كان
يجب أن يضيع مذ مات ابن عمي "الطاهر". لزمت مكاني مأخوذا بقوة الثأر عند
هذه المخلوقات البسيطة العظيمة التي اتخذت عندها الحياة وجهة واحدة، و للرجل
موقف يقفه بعيدا عن طمعي وخوفي ونجاستي...
ظلّ ذلك السّينيغاليّ يتقدم بخطى واثقة بطيئة وقد نسي الفرنسية والعربية وارتدّ
إلى جلدته سينيغاليّا بلهجة عنيفة، فهمت منها أنه يحسبني في زمرة الكولونيل
سمعته يحشو المخزن بالرّصاص وتوقف الأمر على ضغطة واحد " اضغط أيها
الرجل، أرحني من هذا الدمار الذي يفجر رأسي، اقض على كومة الخزي فقد
طال همي ".
تعالى صوتي، أحسست أن الوقت قد حان لنهاية المهزلة المريرة التي أفقدتني
طعم الأشياء بل الوعي بها. ضغطة واحدة وينتهي كل شيء ،حينها لن يكون
للندم والإحباط معنى. "feu " "أطلق " تشنّجت، تحفّزت أعضائي طائعة لتقبّل
القضاء ولكنه كان بغلا، بل ظلّ يتقدم مزبدا واضعا يده على الزناد. و قطع جلبتنا
شبح مامادو كنت أسمع اللحم يُطحن تحت أسنانه اللاّمعة و هو يخفض البندقيّة

ويمدّ إليّ شيئا، بل يفتح فمي و يلقيه فيه و أظنّه كبدا. أنشأ يزعق و يأمرني بالأكل...لُكتُ متقززا...ثم بصقت...

كان بصاق يوسف المنصري مثيرا للاستغراب في مقام الشيخ الجليل. و قد ظلّ خاله يمدّ يدا حمّلت كبدا أحمر نيئا، يريد أن يطعمه ابن أخته، وهو يشيح بوجهه يمنة ويسرة، يتهرّب، فصاح بعض الجمع وعظموا الله وطلبوا "اللطيف " معتقدين به شرا عظيما فليس من عادة "المركوبين" رفض الكبد في الدواوين الصوفية، و إن حدث فهو علامة سيّئة على صنف الجنيّة، ثم دُفِع إلى وسط "الديوان"، فأحاطته الدفوف وألقت عليه أمّه بخنقها وقد لحقت بأخيها المغضب، و تكفل الخال بمزيد من البخور وعظم النقر، فإذا من به جنّة نطقت. و هو يترنح صارخا ،وقد عاودته الحرب و بشاعة المنظر"بعّدوا الكبدة....اضرب" فخال من حضر أن "النوبة " ليست نوبته فغيّروا و جاؤوا بشيخ الأولياء "سيدي عبد القادر الجيلاني":

" □ ﷲ d d ﻗ □ ر ف

ر" □س□ □ ا س □صد9 □ و ا□ "

فانتفض كالمصاب وقفز إلى الوسط يأخذه النغم إلى الألم وتبكيه الكلمات وادّكر في غمرة السّكر عجمة مامادو كلّها فردّدها وهو "يشطح" فظنّ الخال أن جِنّته أعجميّة سمراء فأمرهم بـ "بابا بحري"

" ûﻬ ﺿ د ﻗ □ F ف

C□□ □ç □F "

قوي العزف وهو في خمرة التّذكّر لا يستجيب لقوانين التخاطب "الجنـ/سيّة"كل ذلك والجنيّة لا تتكلّم و إنما هو في شطحات غريبة ولطم وبكاء...وطافوا بجميع الأولياء فكانت نوباتهم تأخذه بكلمها فتحيي جروحه النازفة وختموها بـ"بابا علية" فغمّه النشيج وقد وصلوا إلى :

" ﺻ □ □ ﷲ □ F ﻗ ﻬ

(□ ﺣﻲ□ F 9)"

فزادت الحيرة . ثم استؤنف الضرب فعزفوا نوبة سيدي عبد السلام الأسمر

" û F 9 ﻬ) d ح

S□ 9)"

" □ س û□ن□ 9 □ 9 d□ 9)"

ومدّ الخال يده إلى السماء فتوقفت الدفوف. و لبث يوسف المنصري "يشطح" حتى خارت قواه فسقط على أرضية سقيفة المقام يتلوّى و ينطق أسماء لا يعرفونها. فاقترب منه الخال وبدأ الاستنطاق:

-سلام بيك سلام في ديوان الحاج ناصف التركي السّلطان...هيا هاتي كلام عربي عجمي سرياني تركي، أنا خديم لك بكل اللغات.

لكن لا نفع، بل صار تلويه منكرا وعاوده البصاق...فظن الخال ما ظنه الحاضرون ولكنّه سكت لولا أن قال أحدهم:

-مسكين ..مركوب بيهوديّة

طلبوا اللطف، و نادوا اللطيف، و لم ييأس الشيخ "محمد" فقال وقد جحظت عيناه:

-سألتِك بالله والنّبي رسول الله وبشيخ المشايخ عبد القادر الجيلاني ، "انطقي :آش اسمك ؟ مسلمة و الاّ يهودية ؟

لم ينطق. فحسب أن الجِنّيّة تمعن في المكر و السوء، و أنّها قاتلته إن هي لازمته، فجِيء بجمرة أمسكها خاله بين أصابعه وما كان "متخمّرا"، واصل الكلام أمام ذهول الحاضرين، فهم يعرفون علمه ودروشته و لكنهم يجهلون قدرته على إتيان الخوارق قبل بلوغ درجة "التخمر"، سكب الخال في أذنيه آيات الكرسي فما زادته إلا انكماشا ورأوا له رعدة وعرقا فما داخلهم الشك في أنها يهودية خبيثة، كلّ ذلك و الجمرة بين يدي الشيخ متوهّجة يقرّبها إلى وجه ابن أخته ويبعدها. و نادى جدّه التركي ثم غمسها في إصبع إحدى رجلي الجنيّة المزعومة فسُمِع شيّ اللّحم، و ارتفع دخان فصاحت والدته، و صرخ هو من الألم دون أن يمنعه ذلك من مواصلة البصاق في جميع الاتجاهات.

كان طعم اللحم أسوأ ما قد يحصل لي في هذه المهزلة فأي حرام لم أهتك؟ وماذا تركت للشيطان؟ شعرت للمرة الأولى أنني قادر على قول "لا" على تأخرها. كرّرتها مرارا معيدا بصاق ما دخل فمي. و تقهقرت مستعدا في كل الأحوال لرصاصة قد يطلقها السينيغالي فتريحني من مواصلة التّطواف جفاء. غير أنه لم يطلق النار بل صار زعيقهما أخفّ... فواصلت التّقهقر. ثم لمّا ابتلعهما اللّيل تماما استقبلت الرّصاص و النّيران فجعلتها قبلتي. صرت في ميدان الرماية في الحدّ الفاصل الذي يفترض أن يكون خاليا من البشر خلا المخدوعين أمثالي. مررت في تطوافي الدّائري بخندق رمايتنا وقد أصبح خندقا خلفيا للتموين الألماني. فانخفضت مصيخا إلى نبراتهم المرعبة تعلو و تهبط. سلكت طريقا متعرّجة فحاذيت الخنادق...زحفت ميلين أو أكثر. بحثتُ عن المناطق المنخفضة والأوحال

كجرذ المجاري، كي لا يبصر بي أحد الألمان، و نسيت أنني بمعطف "المنصف" صرت أحدهم. كانت الأرض قد غصّت بأعداء فرنسا، أسمع ضجيجهم المتصاعد وأصواتهم الخشنة تقبل من كل حدب.. يئست أن أبلغ الخطوط الآمنة للفرنسيين الذين بدا لي أنهم انقرضوا في ثورة المدافع الألمانية. الأرض تحترق وألسنة مضيئة تنبعث من كلّ مكان تفضح من لم يتوار. إلى أين المسير في هذا الجحيم الصّاخب؟ لا مأوى اليوم يقي من الانفجارات، كأنما اتّخذت الموقعة شكلا دائريّا وأنا في الوسط ضائع عنّي نصيري. لقد صار التّقدم نحو الجنوب أمرا هراء لا معنى له فقد تراجعت القوات الفرنسيّة لتحمي العاصمة و خلّفت الخنادق وراءها، وذلك ما يحتّم عليّ تخطّي الخطوط الألمانيّة كلّها لأكون في جانب أصدقائي الفارّين، و هذا ما لا يقدر عليه رجل أعزل. تركت فكرة التّقهقر و ابتعدت عن الجلبة زاحفا حتى خفتّت وطأة الانفجارات.
وجدتني في سهل نديّ طريّ، و دغل قريب ساتر. فقصدت الأشجار متواريا كالضبع. حلا لي المشي فتقدّمت إلى الشمال الشرقي وكنت أظنّه آمنا. امتدّت الأرض أمامي رطبة الأنفاس وعالجت جوعي بما ربا في تلك الحقول من فاكهة كثيرة تذكّرت بها الصّور المعلّقة في بيت السيد جاك ديشان"Jacques Du Champs" ما عاد يخيفني غير الذئاب يأتي صوتها مرعبا. أحس أنيابها تتوعد و عراكها حول فريسة، و نداءها بعضها كأنما بصرت بصيد جديد.
خلّفت دغلا من الأشجار كان يسترني وخرجت إلى الحقول حيث يفترض أن تخاف...مشهد "المنصف" النازف يلح عليّ، فأشعر بالندم يسربل أوصالي و يتحوّل ألما يمزّق معدتي، ثم يلحّ، فيهن العظم. ما كان لكل هذا أن يحدث لولا "الطاهر" رحمه الله. كأنني أسدد دين ذنوبي و أخطائي من لحمي و تأبى الحرب أن تقتلني و يأبى العقل أن ينسى.
أوصال مفكّكة و قلب ميت. أما الرِّجل فلا أكاد أشعر بها، لكنّني مدفوع إلى الأمام كما كنت دوما، أواصل المسيرة المترعة بالهزائم والنّدم...لا عثار تحدّ طريقي و لا مجال للتراجع، وحده النسيان يقدر على مداواة جروحي وأنّى لمثلي إنكار ما حدث أو التغافل عنه.
كان اللّيل يودّع أنفاسه. حلّ ضباب كثيف على السّهل حتّى عادت خطواتي في كتل من السّحاب، فعزّت الوجهة و عزّت عليهم رؤيتي. فرحت لهذا الضباب الكثيف يدثّرني، ثم تذكّرت "المنصف" فكرهت فرحي. لم أعد قادرا على استمراء الفرحة بالنّجاة أو غنم البقاء، فقد عطّل مقتل "المنصف" كلّ المشاعر وصرت باردا لا يلتذّ و لا يألم...

الزّمن ضائع لا أعلم له حدودا غير الضوء يقبل و ينقضي. ظللت أتحاشى ما بقي من العمران و الطرق. اتخذت الغابة مهربا فإذا اشتدّ صوت الذّئاب عجت على الحقول. كنت أمشي ليلا و أستريح نهارا على أغصان الأشجار مثلما قرأت في قصص السيد جاك، إذ كنت أخشى أن أنام فيأكلني ذئب أو يمزّقني خنزير بريّ، و كلّما سطعت الشمس قفزت إلى شجرة متوارية وسريعا ما يغلبني النوم قبل أن أطلبه و ما كان نومي إلا أحلاما مفزعة. ظللت ثلاث ليال أحلم بالمنصف يسعى ورائي برشاش ألماني جديد مرعب و قدمين واثقتين، أما أنا فكانت قدماي مشلولتين، أصيح بهما...أستجمع قواي ...أطلِق العنانَ للعدو فأتعثرُ كأنما كنت أجري برجلين معقودتين، وعندما أسقط يدركني "المنصف" متحفّزا لغرس الحربة في صدري، حينها كنت أصحو مسربلا بعرق سيّال. كم أحتاج إلى من يعلّمني طريق النسيان، إلى من يقتل فيّ كلّ الذكريات و يمحو صور من تعذبوا بسببي. إلى أين المسير بكل هذا الحِمل فوقي؟ لا قبلة اليوم لديّ، و لا مكان بإمكانه احتوائي...

كان لا بدّ من قرار فقرّرت على كل شيء لأني غبيّ مات قلبي منذ قتلت "الطاهر"، بل منذ فارقت أهلي إلى تربة الشقر أتكلم كلامهم و آكل أكلهم. قبلتي حيث تنعدم أصوات المدافع و ينعدم اللغط الألماني. لبثت على هذه الحال ثلاث ليال أو أربع آكل مما ربا على وجه الأرض و أشرب من سواقيها و جعافرها... انفرج مع الفجر الرّابع أو الخامس حقل القمح أمامي عن بيت كبير واصطبل، فهزّني الفضول. كنت قد أدركت جهة" Verdun فردان" بعد مسيرة قد توصلني في تونس إلى حاضرتها.

فكرة الدخول إلى ذلك البيت قد تكون نهايتي بيد أن الدفء ألحّ ووجدتني أتحسس الجدران و النوافذ....إلى الشّمال اصطبل انطفأت نيرانه فدخانه مع الفجر زرقة...ملأت الجوّ رائحة اللحم كأنّ دواب هذه الصِّيرة صُلِيتْ حيةً، و على مسافة عشر خطوات تقريبا أطلّ البيت في صمت بنوافذ تهشم بلورها و شرفة علوية متهدمة السقف. لقد كان قصف الألمان عنيفا كعادته. ألفيت الباب شبه مفتوح فحملت رجليّ على مشي حذرٍ أغتال به النّقر على أرضيّة السقيفة الخشبيّة، كانت الألواح تصدرت صريرا وئيدا فتمهّلت. ثم تشجّعت بالصّمت البادي على المكان. دلفت إلى البيت، غرفة جلوس كبيرة دافئة...ممرّ ضيّق مظلم يقود إلى كنيف إفرنجيّ...مطبخ واسع تتوسّطه طاولة عليها لحم و جبنة و خبز يابس و فخذ أبيض معلق ما استحسنته. تناولت قطعة من الجبن...أكلتها بلا خبز في ترف ما عهدته...تجولّت في البيت فلمحت خزانة مفتوحة قد أطلّ منها

صندوق فعالجته بسكّين جلبته من المطبخ، كانت في الصندوق قطع قليلة من المصوغ أفضلها عقد ذهبيّ في شكل أقحوان متسلسل...وضعت القلادة في جيب المعطف و قد عزمت على إهدائه والدتي إذا ما كتب لي الله النجاة، ثم صعدت الدّرجات متّكئا على حوائل حديديّة.
ما هي إلا درجات قليلة حتى انبعث من العليّة صرير الخشب، كمن يفركه جيئة و ذهابا، أو كمن نسي شيئا معلقا تهزه الريح...واصلت الصعود ممسكا بالسكين عينها...صار الصرير قريبا أشعر به في غرفة إلى اليمين...ضوء الفجر يقبل من النوافذ فيصل إلى الباب المنفرج ويهل على منتهى الدرجات. قوي الصّرير بقدر الفضول الذي يدفعني إلى اكتشاف كنهه...
لذعتني ريح باردة هلّت من السقف العاري الذي تساقط على الأرضية وأقبل النور يفضح مشهدا بشعا...
على السرير أسرة كاملة أب و طفلان بل فتاتان تبيّنتهما بمزيد من القرب. لا بد أنهم كانوا في لهو حينما فاجأهم القصف العنيف فاحترقوا أحياء وهم في عناق، أو كأنهم كانوا في مشهد توديع...أجساد متفحمة لم تمهلها الحرب الهرب و اغتالت فرحتها. رائحة اللحم تملأ الغرفة، و الصرير يتعالى فالتفتّ أبحث عنه في النور الخادع. لم أنتبه مذ دخلت إلى أن مصدره كان ورائي، خلف الباب تماما، جسد أنثوي متهالك على كرسي هزّاز تتلاعب به الريح فاقتربت وقد تآلفت مع الموت وتضاءل فعل الأشباح...
كانت عيناها مفتوحتين وبدا أنها ماتت رعبا أو حزنا، أو غمتها اللوعة. مددت يدي لأغلق عينيها إشفاقا. فقد ذكرتني زرقة لحظيها أنجيليك Angélique كم كانتا دافئتين ترحلان بي إلى زمن ضائع حبيب. امرأة ناضجة شقراء كما يتخيل المرء النساء الغربيات، بضّة مترعة الجسم يحدث ثقلها صريرا، و صدر ممتلئ قد اختفى فتبدّى وراء قميص داخلي شفاف و صدرية من الـ"dentelle الدنتيل". كاملة لا يعيبها إلا الموت ونظرة باهتة ثابتة نحو السرير كأنما فقدت روحها مع من مات. لمست جفنها الندي، فتحرّك و كدت أموت. لقد كانت حيّة ميتة، لم تثِر فيّ جلستها إلا الخوفَ فلم يكن في جلوسها ما يوحي بالحياة. كل طرف فيها ساكن متناسق مع الموت. أسلمَت للمنيّة جسدها فهي مسلوبة الروح. كنت مأخوذا بصمتها و غيبتها، إنّه ذلك الصمت المقيت الذي لا يعادله معنى و لا يعكس إلا رهبة الموت ذاته. ملامح هادئة مطمئنّة خادعة و نظرة إلى السرير كأنما تشاهد ببصيرتها لا ببصرها. كرهتُ أن أكون هناك سلبيا وقد رأيت فيها بدلا من ابنة معلمنا، فهززت الكرسي وحرّكت كتفيها بلطف. فانتفضت وكأنها تشاهدني للتوّ.

فجأة صارت قسماتها موحية دالّة وانقشع الذهول فانثال الكلام ثورة بل عجمة أظنها ألمانية قالت و هي تمسك برجلي المرهقة المصابة:
"Töte mich" توتِ مِيش" ظلت ترددها تحسبني في الألمان و أنا جاهل ما قصدها فأفصحتُ وجئت بكلام الكولونيل:

- Madame ! du calme ! C’est fini...Ils ne sont plus ici.

- سيدتي! لتهدئي! لقد انتهى..إنهم رحلوا.

- Mais tu es un des nôtres ! Alors pourquoi ce déguisement, espèce de traître? pourquoi es-tu déguisé en allemand ?

- لكنك واحد منا! فلِم التنكّر، أيها الخائن؟ فيم تتكرك في زيّ الألمان؟

كان السؤال محرجا، وعلى اضطرابها و ضعفها وجدتني أمَهْمِه وانطق كلاما مرجئا هاربا به من الخبر و الخبر عتيّ.

- C´est une longue histoire. Et puis c’est…long à expliquer.

- قصة طويلة، و...يطول شرحها .

- Qu’est ce que tu comptes faire ? Allez, tue-moi! Achève-moi ! Je n’ai plus rien à perdre ! Ouvre tes yeux ! Tu vois ces cendres ? c´était ma famille !

- علام عزمت؟ هيا، اقتلني! اقض علي! لم يعد لدي ما أخسره! انظر! هل ترى هذا الرماد؟ لقد كان عائلتي!

- Je vous ai dit que je ne cherche pas à vous tuer. je fuyais cette guerre. Vous n´avez rien à craindre. Bientôt sera un nouveau jour. Vous pouvez partir où vous voulez.

- أخبرتك أنّي لا أنوي قتلك. كنت هاربا من الحرب، فلا تخافي...قريبا تطلع الشمس، و سيمكنك الرحيل إلى حيث شئت.

- Sans famille ? Dis moi ! idiot ! Quel lendemain apportent les déserteurs en fuite ? A quoi sert d'attendre ? Je suis déjà morte, Fais le !

- دون عائلة؟ خبّرني أيها الأخرق! أي غد يحمله الفارّون من المعركة؟ فيم الانتظار؟ إنني ميتة، هيت لك.
وشاهدت السكين في يدي فصاحت:

- Qu´ attends tu ? Enfonce ce couteau !

- ماذا تنتظر؟ اطعن!
ألفيت كلامها أصدق فلا أمل في غد تاه عنه الأمل. لا شكّ في أنّها ترجو موتها أكثر من خشيته، كأنّها تريد اللحاق بمن كانوا عائلتها. رأيتها تقفز إلى السكين تريد أن تنتحر به، وحلّ "الطاهر" في الذاكرة فأنكرتُ فعلتها. لا أريد مزيدا من الدماء. لقد عافت نفسي مشاهد القتل و آمل أن يتوقّف النّزيف لأسترجع أنفاسي. دفعتها فارتمت على الكرسيّ، و حاولت النهوض فدفعتها من جديد، وكرَّرتْ فكررتُ حتى أعياها الجهد. حينها تهالك حملها و أطلقت حنجرتها بالنحيب، بينما ظللت أراقب صدرها يعلو و يهبط مشفقا مشتهيا. تداخلت في رأسي صور كثيرة...أحلام و محرمات و أمر و نهي...ألفاظها الضائعة تفضح ضعفها فهي في شتات بين الأجساد المتفحّمة و وقوفي جوارها أمنعها أن تموت. بقيت أراقبها حتى عاد نحيبها بكاء حارّا صامتا، ثم إذا الجو صمت...خجلت من نظراتي تلتهم صدرها فانسحبت إلى أسفل الدرج. جلبت لها ماء بللتُ به وجهها و عدت إلى الأسفل. وجدت متكأ فألقيت بحملي و قد قررت أن أترك الثكلى لمصيرها تقرره كيفما شاءت...تفقدت رجلي. رأيت جرحا نازفا يصل بلل دمائه إلى قدمي، كان الألم آخذا في الإفصاح و التورم. وجدت في خزانة الشراب كحولا ملونا ثمينا سكبت منه على موضع الجرح، حيث بدا لي منبع الدماء، فصار الألم أضعافا. صررت أسناني حتى كدت أحطمها و عالجت موضع الطعنة، فألفيت اللحم والبنطلون سواء قد امتزجا. شعرت بالوجع يتوالد، فأسكته بمزيد من الكحول وكانت الدماء تتدفق حية سيالة حمراء وشاهدت اللحم على الجانبين أزرق في لون آثامي الكثيرة...صارت الحركات متعاقبة بين سكب الشراب و تخليص الجرح من القماش العنيد حتى انتهيت و ليتني...فجعلت فم الزجاجة في فمه و ربا الوخز و الصّراخ المكتوم حتى عادا رعدة لا أجد شبهها إلاّ في مشهد ابن خالي أو ابن عمّي قبل موتهما...
اتّخذت وضع الصّخر الجماد، اغتلت حركتي، كأنّي جعلت نبضي قتيلا. إذاك خِلتُ مجرد التململ كفيلا بتفجير دفقات الألم الدفين...رحت أراقب رعشتي تذوي وئيدة، تفارق رأسي المثقل نازلة، أشعر بهدوء لذيذ يحل على البدن واستجابت

عيناي أخيرا إلى ما كنت أحتاج إليه....جفناي ثقيلان لا أكاد أجد لهما عصبا نشيطا..أخيرا غفوت بين اهتزاز الكرسي في الأعلى و دويّ المدافع البعيدة. وهج الشمس صار قريبا أشعر به يتخلل الستائر المحيطة فيقع بعيني .استدرت مستسلما لدعوات النوم تأتي من القلب المتعب المكلوم و الجسد الواهن...أسمع خشخشات صادرة من المعطف بعضها صرّة الرسائل و بعضها قلادة الثّكلى. مددت يدي. انتزعتها...وضعتها على رأس الأريكة، و أظنها سقطت، وأسلمت وجهي لبشائر الشمس الزاحفة من فرج السّتائر. ندى بجبيني و رعدة أحسّها تملك أطرافي، صدى الكلوم يغزو الجسد بحمّى آخذة في التمرّد، و نوم ألحّ عليه لينسيني بعض همي...إصبع "المنصف" يطلّ أزرق قد أكل منه البرد والوحل...أشلاء رفاقي عادت تحيطني...أغمضت عينيّ أستدِرّ غفلة أو سِنَة تقيني نفسي الضائعة في مشاهد الدمار...أشعر بالوهج قريبا و بجبّة بيضاء تحطّ فوقي، لا شكّ في كونه سيدي "الحاج ناصف" جاء يهدّئ وقع الألم...

كان خاله يغطيه "ببخنق" والدته الأبيض الناصع و الحضرة متوقفة خار عزمها كأنما قصر الكلام عن البلاغ، وهو يتلوّى متعبا، مرهقا ،متورّم الإصبع، مفتوح الفم، غائر الملامح.
فهم الخال أن لا نفع من مواصلة الحضرة و الجنيّة لا تستجيب لأصوات الأولياء على اختلافهم. مدّ الشيخ "محمد" يده، فجيء بدلو ملئ من جرة مسندة إلى "جهاز" باب المقام، أخذ منه كفّا بلّل به وجها أصفر...صلّى على الرّسول، و بسمل، ثم غرس رجل ابن أخته في الماء، و ضمّه إليه ضمّة أعادته إلى صدر

"المنصف"، ثم سكب في أذنيه الشهادتين، فسُمِعت له أنّة رفيقة كأنّما عادت إليه الروح.
انفضّ "الدّيوان" فجمع الشاطحون أنفسهم و أسمالهم فمنهم من وجد نفسه راقدا على الأرض و منهم وقوف ألقوا عليه نظرة إشفاق يعلمونها. أمّا "المنيّبة" فقد هرعت إلى ابنها تحضنه خاشية أن يصيبه ما أصاب ابنة أخيها "فوزية" من جنون إذ انتقمت منها الجنية نكالا...و ضمّت ابنها حتّى أحسّ بوخز "الشّرموخ "الذهبي في صدره. و أقبل أخوه ناصف ليُقيمه فأخذ بيده. نهضوا جميعا يطلبون البيت...
اجتازوا الزقاق صامتين حتى إذا وصلوا نهايته دخل كلّ بيته وغلّقت الأبواب.
كانت "فاطمة" متردّدة... بقيت تشيّع عائلة ابن عمها بدموع صامتة حتى دخلوا. لبثت تتصيد فرصة لتخلو بيوسف فأعيتها الظلمة والأبواب، و تناهت إلى سمعها دعوات أبيهاتأمرها بالدخول فأوصدت الخشب و ارتمت على سريرها تتم مناحة منفردة لا سامع لها إلا السوس يأكل من الخشب كما أكلت الغربة من
أحلامها...استبقت "المنيّبة" الجميع إلى المطبخ المتهالك تجمع ما بقي في المرجل و جاءت بطبق الحساء. قدمته إلى ابنها المطرق...تقدّم ناصف كالمشجع فأصاب بضع ملاعق خشبية و الأخ مطرق يتساءل عما حدث له. لم يفهم كيف وجد نفسه محاطا بالخلق في مقام جده، فلا يذكر إلا صوت الدفوف و قد لعب بوعيه. ثمّ تاه عن بقية الأحداث...تقدمت الأم مقرفصة سائلة:
-آش بيك ياوليدي ؟ وانت هاز الهم على اكتافك تخمم من وقت اللي جيت كنّك ما تعرف حد ؟
-يمّا ! راهي غربة طويلة.
-الغربة -الحمد لله- قصرت، و اللي فات مات. توّ هاك في أهلك و ما تعمل شيْ في خاطرك.
قاطعها ناصف قائلا:
- راهي حرب يمّا:موت بلا قوت، ناس طايرة في الهوا ويدين مقطوعة وهول أزرق. كل من شاف الموت ما يقدرش ينسى. آش ينسى و الغول يحوّس في النهار و القايلة.
وجدت الأم في كلام ناصف ما يحبط فهزّت كتفه و هي تراقب يده تستنزف الحساء و همست في أذنه أن يكف عن الطعام. فخجل و ترك الملعقة تنزلق في بقية الحساء رويدا حتى غاصت والتفتت إلى يوسف متوددة:

-كول راك جعّان ؟

-و الله ما غرضي في الماكلة، نفسي مسدودة و ما حاجتي في شيْ.

-بربّي غصّب على نفسك ، براس وليدي كول.

تناول يوسف الملعقة بعد أن فتّش عنها في المرق الذي طفح إدامه المتجمّد. راح يحرّكه و فكره تائه في الأهوال التي تصل إلى حلقه فيُعجِزه لسانُه عن الإفصاح. أصاب ملعقة واحدة، فوجد الطّعم غير الطّعم و أدركته مرارة "الحلبة" بين أسنانه. جاهد ليخبّئ مشاعر التقزز ثم أصاب ملعقة أصغر و دفعها إلى جوفه إرضاء لوالدته التي كانت تأكل ملامحه شوقا...أدرك ناصف ما يجول بملامح أخيه من النّفور فدعاه إلى النّوم.

-يمّا خلّيه يرقد خويا تعب و يحب يرتاح.

وأردف كالمداعب:

-شوفي عيونه خيطهم السهر، و الاّ نسيتي اللّي الجيش يرقد كيف الدجاج.

ثم شعر بثقل ما قال فزاد:

- و ينهض كالسردوك العربي، غدوة انشالله يصبح لا باس.

-مازلت ما شبعتش من وليدي.

-يمّا الهواء برد، و تعبنا ،غدوة اشبعي بيه كِيفمَا تحبّي.

نهض ناصف فأفسح لأخيه الخلوة، و أعدّت له "بيت أمي الخضراء " فدلف يتحسّس مرقده في ضوء الشموع النّاعسة، حتى اهتدى إلى حشيّة الحلفاء التي امتلأت برغوثا وقملا و مما آتتها الأدغال من المخابئ تتّخذها الحشرات ملجأ، فهي حياة تضجّ بالحركة الصّاعدة. استلقى على الحشيّة...رفع بصره إلى السقف يجيل نظره في خشب النخل و من فوقه حصير من القصب المنضود تنثال منه حبيبات الرمل مسافرة قد أكل منها الزمن، وأطلّت عليه الجدران بيضا مرصّعة بمسامير كثيرة قد عُلّقت عليها الملابس كما اتفق...بقي بعض المسامير ناتئا و بغضها اتسعت حوله الحفر فسقط فزادت الحفر اتساعا.

كانت ليلتي الأولى في بيتنا موجعة قضيتها مأخوذا بهول المسؤولية و الرّغبة في النّسيان ولسعات الحشرات تمتصّ دمي في شبق مؤلم. و كنت أحيانا أغفو من التعب فيطلع عليّ شبح "الطاهر" و "المنصف" لائمين مقرعين فأهرب إلى الوعي بوعي مغلوب و عينين تلحّان في النوم..

مع تباشير الفجر الخادعة، امتلأت الدار بأخيلة من سبقوا، تتراقص أو تروح وتجيء و كل في شغل عني. أدير رأسي فتتناهى إلى مسمعي هسهسات خفيفة...أصوات وئيدة تصدر من الطلاء الجيريّ كأنها زمزمة غير إنسانية أو كأنها جدل في "ديوان" بعيد. كذلك كانت ليلتي بين سِنَة مُفزعة ويقظة امتلأت بدعوات خالي "محمد"، لا شكّ في أنه قضّى ليلته مُسَهّدا يرفع يديه إلى الله يدعوه أن يعيد ابنه كما أعاد ابن أخته سالما.
دوار من الأفكار والفرضيات ما فتئ يغرز فيّ ألسنة مخزية كما الذباب يقع على الجيف يرشف ماءها. أشمّ عفونتي تطغى و أشعر بصغاري حيال هذه الدار التي طالما كانت مزارا لأصحاب النوايا الحسنة. أشعر أنني لست أهلا لأن أكون هنا بينهم رغم أنّ الوجود هناك أكبر مقتا و أذهب لفكرة الوجود ذاتها.
دوار...دوار يحلّ، و صمت مملّ ينتظران مني محالا أو خبالا يخرجني ممّا أنا فيه بكلمة اعتراف أو بشهادة تنتشلني من التردد...عدت كليلا إلى حيث كنت: أقول؟ أو لا أقول ؟ لا أحد أخبرني بما أتيت في مقام سيدي الحاج ناصف. و أرجو أن لا يكون في ما حدث ما قد يوحي بما حصل ، و إن كانت الملامح لا تخبر بشيء مهمّ فذاك دليل على أن غيبتي لم تكن أقوى ولا أعتى من وعيي. لكن إلى متى القدرة على دفن الأسرار؟ إلى متى يتحمل اللسان عدم الكلام ؟
دوار يهدّ أنفاسي المتعبة رغم النّسيم القبليّ البارد الذي أشعر به يحرك مصراعي النّافذة الصغيرة المطلّة على صحن "الحوش".
انطلق الأذان من جامع "سيدي إدريس" يدعو إلى صلاة الفجر. وتلته أصوات المآذن الأخرى . وسمع حركة في الخارج، و خطى بطيئة تجرّ خفّا،و رنينَ "الشرموخ" الذهبي.
تابع الخطى و هي تلج إلى الكنيف وتخرج فتتوضأ فتصلي بنقرات سريعة فتسبّح وتطلب اللطف له، دعواتها الصادقة تعيد عليه الفاجعة بمذاق جديد .فأغرق- و هو يسمع- في بكاء حارّ لم يستطع معه صبرا، فصار صوته نشيجا. قطعت "المنيّبة" تسبيحها، تقدّمت نحو مرقده و أطلّت برأسها تناديه:
- يوسف...يوسف..فقت؟ أكبدي!..آش بيك ؟
فكتم صوته، وخشي أن تعلم أمّه بكاءَه و قد عهدته جلدا. أعادت النداء مدركة أن به أرقا.
-ما رقدتش ؟
لم يجد مناصا من الإجابة مشفقا على أمّه من الكلام منفردة فردّ:

-لا يمّا ما رقدتش ، مش جايني نوم.

-آش ثمّة وليدي ؟ علاش يا كبدي تبكي ؟

-حتى شي يمّا راني تاعب، و نحس روحي مريض..راني من يوم اللي خرجت ما شفتش النوم. تاعب يمّا.

ودّ لو يستطيع أن يخبرها بقتله "المنصف"، ودّ لو يعلمها ما حدث لكن الكلمات انقطعت فاكتفى بالقول:

- توحّشت خويا "المنصف" و تفكّرت "الطاهر" ولد عمي...يمّا وقتاش نرتاح؟ ...تعبت.

- "الطاهر" الله يرحمه، وخوك "المنصف" يحن ربي و يجي، إيه يا وليدي ربي يفرّج علينا. تعدّت غصرات و احنا نترجو في رجعتك، و قالوا لعباد راك -اسم الله ، بعيد الشر- حصلتلك حاجة. و انا يا كبدي عيوني بياضت مـالبكى، و اليوم الحمد لله رجعت وانشالله ربي يصلّح لوضاع الكل.

دفعت أمه مصراع الباب...اقتربت جالسة عند رجليه...راحت تفرك أصابعه ، تمسدها كما كان يفعل هو في صغره فطالما نادته و ترجته أن يمسد أصابع رجليها، حتى صار خبيرا بمواقع الألم الناجم عن كثرة الوقوف، و كان يهوله عدد الشرايين الزرق المتورمة، و قد نصِحت بتجنّب الشاي الأحمر مخافة أن تزيد أوردتها زرقة و انتفاخا، فكان أخوها مضطرا إلى ابتياع الشاي الأخضر من أجل أخته كلّما زار الأراضي الليبية أو اتصل بـ"الكناترية" نقّالي البضائع المهرّبة، أما "المنيّبة" فكانت لا تعلم لذّة أفضل من أن يفرك يوسف رجليها أو يضغط على أصابعها فيخفف ألمها. مرّرت يدها على إصبعه المتورم فاهتزّ اهتزازا خفيفا فتمتمت بدعاء أنكره وأردفت "شواك خالك الله .." و قبل أن تتم دعاءها، أوقفها فانكتمت و واصلت حركاتها الوئيدة وقد وجد لها راحة هدّأت وقع الدوار في رأسه...اهتدت "المنيّبة" إلى عمق الجرح أسفل ركبته اليمنى و هالتها الإصابة الملتئمة، لم تقل شيئا، بل حاولت منع دموعها من السقوط على رجلي بكرها... لطف اللمسات الخفيفة ونسائم الفجر القبلية أنعشا روحه البحرية...شعر للمرة الأولى بالسّلام يخيّم على جسده المريض...سكنت الحشرات الصّاعدة إليه من حشيّة الحلفاء كأنّما اكتفت بما أصابت خلال الليل...أحسّ بثقل جفنيه فترك النوم يهجم مستسلما. أخيرا غلبه النعاس حينما شارفت الشمس على البزوغ.

لا أدري كم من الوقت أمضيت في ذلك النوم منهدّا بالحمّى والكلوم مستلقيا غائبا و قد استقبلت الدّرجات. كنت في غفلتي أشهد مرتعا لخيالات الموتى و الأحياء يحيطونني ، يطوّقونني. رأيت رأس "الطاهر" و أصبع "المنصف"، و رأيت أنجيليك Angéliqueتشهر في وجهي سكينا ثم تأكلها العتمة العالية، وشاهدت أختي كانت تندب خديها فيسيلان دما، وتلتفّ بخنقها، ثم تنهض فإذا هي "سيدي الحاج ناصف" يضرب كفّا بكفّ. وأنا؟ يا أنا المسكين الغارق في العرق المتخبّط في وهج الحمّى...كنت أشعر بالماء سيّالا، يبدأ دافئا ثم يتحول مع الطقس إلى برودة الموتى، ويلقعني برعدته، فإذا الجسد جليد. و مع كل قطرة عرق يتقوى إحساسي بالعطش...كم جاهدت لأنهض، لأشرب، فما وجدت إلا يدا خائنة و رأسا ملأه الدوار، و أعضاء لا تطيع. أقصى ما استطعته، أن أقتبل قبلة جديدة بتحويل وجهي نحو الستائر يقبل منها وهم متعاقب من الضوء والظلمة...أمضيت أياما بين الحاجة إلى الراحة و ضرورة الارتواء...عطش كالشّبق في ليلة قائظة. كنت أحس بشفتيّ تتشققان ولساني يتلمظ يبحث عن جرعة أو قطرة لتعويض المياه المفقودة و ما قدرت على النهوض...وجدتني خلال نوبات الحمّى أستيقظ، فأرى النهار الماكر قد ارتدّ ليلا. و أنهض فأجد نهارا، فنهارا فليلا حتى نسيت آخر ما عهدت من الوقت. صرت إلى اللاّزمن في برزخ يحدو الأوان إلى غير أوانه. أحيانا كنت أستيقظ مكرها مفزعا فإذا أنا في ظلمة دامسة و قمر غائب، قد ضاع الزمن واندثرت الوجهات فلا جنوب و لا شمال و ما هي إلا أريكة تحمل جسدا مثخنا بالجراح و عطشا مقيتا للماء و النسيان... أمدّ يدي المتعبة إلى الفضاء أفتّش عن الستارة خلفي، أبحث مجهدا، أطوف بها في الجهات ساعة أو ساعتين وبعد لأي يتبين أنها كانت خلفي ثم يغلبني الإجهاد ويرتد ما كان ورائي أمامي. كأنّما صار ما يحتوي النّاس يرفض احتوائي، بل كأنّما صرت غائبا في الغياب ليس مني إلا ذاكرة الموت و إثم قريب...مضت أيّام في تعاقب مضطرب بين نوم هشيم و يقظة أشبه بالغياب، مشتتا بين الحمى و الإرهاق و الحاجة إلى الماء. تركتُني صريعا بينها فما كنت قادرا على حمل نفسي لتقرّر أيّها أولى بالتبجيل...حتى شعرت ببعض النشاط، و ألفيت يقظتي تجيء غير مفزعة، وتمّ لي الشّفاء. حملت جسدي على السّير نحو المطبخ، كرعت في برميل خشبي ملئ ماء .فما ألذّه بعد الحميم. شربت منه برأسي وعببت حتى ما تركت شريانا خاملا إلا وقد عالجته بالماء قبل الدماء. في أثناء ذلك كنت

أسمع صوت المدافع أقرب ممّا كانت عليه قبل الحمىّ اللعينة، و سمعت قذائف تسقط في الحقل المجاور فعزمت على الرحيل قبل أن تهلّ طلائعهم...
عزم يوسف المنصري على مفارقة البيت لكنّه افتقد اهتزاز الكرسي في العلّيّة، فكّر لوهلة أن تكون الأرملة رحلت إلى بعض أهلها فما نفع العيش بين الأموات؟ قصد الدّرج لقطع الشكّ بخطوات وئيدة، فاكتشف خلال صعوده مجرى دماء جافة و لعبت به رائحة الجيف. ما كاد يدخل الغرفة العلوية حتى قويت الرّائحة فألقى ما في بطنه و سدّ أنفاسه..شاهد المرأة يغشّيها الذباب. لم يستطع إمعان النظر إليها، لكنّه لمح الدماء الجافة تنحدر من معصميها، فلابد أنها انتحرت لتلحق بمن سبقها من أسرتها. شعر بإحباط شديد إذ شاهد فيها صورا من الماضي وربما تمنىّ أن تكون سلوى عن بعض همّه، و إذ غاصت رجله في دمائها لام نفسه على ضياع الهراء. استبق خطوَه إلى الباب، ثم إذا هو يعيد وضع المصوغ في جيبه للمرة الثانية...
خرج يشرح رئتيه لهواء الصبّح البارد...ألقت عليه الشمس ضوءها فاتقاه بيده. التمس لنفسه مهلة ليقرّر أي اتجاه يسلك. كان يعلم أنه مجبر على السير عكس المدافع و القذائف...انتظر بعض الوقت حتى رأى بعض القذائف تأتي من الجنوب. فاستقبل الشمال نحو المرتفع، حيث قلاع فردان **Verdun** الأثرية و حصونها. ومع الصعود لاحت له الأعلام الفرنسية وخنادق حفرت والتفت وراءه فما كان يفصله عن الألمان غير غابة لا يكاد يتجاوز عرضها ثلاثة أميال. كان من المتاح النظر إلى حشد من مدافع **سكودا** النمساوية الشهيرة، التي اختبر عنفها في ما سبق من الأردين Ardennes فما كان إلا جسد متطاير، أو خندق ينهدم فيطمر من تحته، أو عتاد يخرّب. زاد صعودا موقنا بالخلاص فذا جيش الأصدقاء قريب. نسي لحين آلام الذكرى و بدأ بالتّلويح لزملائه...
كان هذا يوم **21 فيفري سنة 1916**، اليوم الذي لن أنساه ما حييت ومن بعده أظنني ما حييت حقا، فبعد لأي و جهاد لصعود التلة الوعرة حلت اللعنة: لقد كانت لحظة كلفتني خمس سنوات ضائعة مضافة إلى الهراء الذي أفنيت فيه عمري منذ أن ولجت قسم الجندرمة أحمل ملفي اللعين. تقدمت من أسلاكهم مائتي متر فمائة متر، ألوّح بيدي. و ما هي إلا لحظات حتى انهال وابل من الرّشّاشّات التي لو كانت بأيدينا لأبدنا الألمان عن بكرة أبيهم، و لما فقدنا الرجال. كان الرّصاص يقبل من كلّ الجهات فينثر من حولي العشب و يجتثّ الشّجيرات فانبطحت..زعقت رافعا صوتي:
لا تطلقوا النار، أنا فرنسي" Ne tirez pas je suis Français"

كرّرت جملتي العديد من المرّات واعتقدت أنّها كفيلة بإسكات عاصفة الرصاص، لكنه الوهم، فقد أمطروني بزخات متتالية اعتقد بها الألمان بداية موقعة جديدة، فردوا بأفضل منها من فوهات مدافعهم. صرت بين نيران هؤلاء وهؤلاء لا أجد لي انتماء و لا أعرف لي سكنا بينهم. كانت مدافع "السكودا" تدفع بقذائفها غير بعيدة أمامي و خلفي فتثير الأرض وتستثير النقع، و لا تكاد تهدأ حتى تعاود الرشاشات زخاتها. لم أكن متأكدا من سماعهم زعقاتي المستغيثة فرفعت صوتي ولوحت. اعتقدت أن الغبار المتطاير حائل لا محالة دون رؤيتهم لي فتكلفت النهوض مع الأخطار المحدقة و رجوت أن تتبههم أصواتي وملامحي ولساني الفرنسي....في الجو روائح اللحم المشوي...صار التقدم أو التأخر واحدا بين القذائف، وما ثمّ غير حديد ينفلق أو رصاص يصفّر. بالغت في تحريك يديّ ورفع أصواتي...بعد زخّتين أو ثلاث سمعتُ أمرا بوقف النار وطُلِب إليّ أن أتقدم رافعا يدي ففعلتُ و قمتُ منحنيا، تقدمتُ بضع خطوات ثم هرولت نحوهم فقد كان بطء الحركة انتحارا...واصلت رفع يديّ حتى أدركت التلة...

تجاوزت في الوصول إليها حاجزين ترابيين وآخر قدّ من الأسلاك الشائكة انتشرت حوله جثث القتلى المحترقين و الموؤودين و أنصاف الموؤودين ممن ربا بعض أجسادهم على الأرض. فكنت ترى يدا ممتدة كالوتد أو رأسا تجاوره رجل كأنما تلخص الكل في جزء، و أحيانا ينزلق بي الوحل فأدوس صدرا أو بطنا و لا ألتفت إلى كل ذلك حتى أدركت رأس التلة فأطلّ الجنود...ارتفع الزعيق و تصايح الناتئون من المخابئ و الحفر والخنادق:

" Le traître! L'allemand! L'espion! Espèce de crétin ! "

" الخائن! الألماني! الجاسوس! أيها الوبش!"

كنت أستمع إلى جلبتهم غير موقن بما تخبئه مهزلة القدر و عواقب سوء اختياري...أبديت ابتسامة متكلفة رحبة و كنت أظنهم يعنون غيري بنعتي، غير أن العيون المنفتحة المغبرة - و هي أول و آخر ما رأيت قبيل وضع الرأس في خيش الخبز - بقيت تلتهمني، و تنطق بما لم تنطق به الألسن نحو الألمان الغزاة. و صرت بينهم تماما.

اندفع أصحاب تلك العيون نحو يوسف في غضبة واحدة يركلون الجسد المرهق و يرفسون، فكان أغلب الركلات يصيب جرحه غير المندمل فيوقظ النزيف و يسيل دمه. و دسّ أحدهم يديه في جيوبه فاهتدى إلى عقد الأقحوان فخبّأه ثم دسّ يديه فاهتدى إلى صرّة الرسائل فأعلنها و قدّمها لقائده. نظر يوسف المنصري بين السيقان النشطة، فإذا بقائد الميدان يقف باتجاهه ساخطا مزمجرا:

" Qu'est ce qu' un allemand de couleur fait dans ces domaines de merde?" " ما الذي يفعله ألماني أخلس في هذه الأرض الملعونة؟"

فأجبت على عجل :

" Mon commandant ! Caporal-chef, Joseph Mansart, de la deuxième armée ,quatrième division."

" سيدي القائد**!** الرقيب الأول جوزيف مانسرت، الجيش الثاني، الفرقة الرابعة."

و أردفت قائلا:

" J'étais sous les ordres du colonel Jean aux Ardennes encerclées… J'ai pu m’enfuir en me déguisant"

" كنت تحت إمرة الكولونيل جان بالأردين المحاصرة...و استطعت الهرب متنكرا"

فقال معين له و قد لعب برأسه شيطان الشك:

" Du bluff ! Il a l'odeur d'un espion. Exécutons-le avant que les allemands n’arrivent"

" احذروا الخداعَ، تفوح منه رائحة الخونة. فلنعدمه قبل وصول الألمانيين " جذبني من المعطف بقوة أسقطتني أرضا و أذكرتني سقطة "الطاهر" في قسم الجندرمة. لم يكن القائد محتاجا إلى من يحرضه عليّ أو من يرده عن تصديقي إذ بدا مشككا، فأمر رجاله باعتقالي ريثما ينظر رؤساؤه في أمري. أردت أن أستأنف الشرح وتفسير ما أشكل...أن أخبرهم بالصدفة التي جعلتني أغتال ابن خالي و بالخيبة التي دفعتني لارتداء معطفه...أن يتفهموا حقيقة ما حدث و سرّ الملابس الألمانيّة....أردت أن أذكر كل شيء كل القذارة التي أفنيت فيها جسدي و بذلت من أجلها لحمي ودمي...لكن من يذكر ما فعلت؟ رأيت المساعد المسؤول عن الراديو يخشخش في أذن القائد. سمعت شيئا عن إقالة جنرال كبير و صعوبة الموقف في الحاضرة المضطربة التي بقي مصيرها مع الزحف بين أيدي الأقدار المتمردة و المدافع الألمانية العاتية. ثم بحركة متزنة من يده قيِّدتُ إلى جدار الخندق الزلق. وعادت العيون الزرقاء المشمئزة تلتهم وجهي...انصبّ عليّ وابل من البصاق، فبكيت من المهزلة حد الضحك من القهر الغريب الذي قد يلقاه المخلص من أوليائه. أمّا هم فبدا أن ضحكي صار مشجعا على مزيد من البصاق المنغمّ بالضرب. كان آخر ما قد أفكر فيه، أن يتم اعتقالي على أيدي الأصدقاء الذين بعت من أجلهم دمي، و بذلت في وحلهم ذاكرتي المسحوقة بألوان المهانة

الفرنسية الفاسدة. رأيتني بعيدا عن الأحلام القديمة، رأيت "التوريفال" خازوقا لكل "بيّوع" واهم. و ألفيت الحلول في جلدتهم حلما بعيد المنال...
فتحت اللعنة الألمانية أفواهها...لم تسعفني رصاصة أو شظية أو قذيفة لتنهي سفر الإحباط والخزي، بل كانت تقع أمامي أو خلفي أو عن يمين أو عن شمال فيقع وجهي لصدمتها في الوحل الطري ممرغا. فإذا وقعت جاؤوا لتفقد وثاقي، فأنا بين قيام و سجود. صار لحن المدافع يجد ترجيعه في لحمي: فمع كل قذيفة أو شظية أو زخّة رصاص معاد يندفع إلي جندي أو ضابط راكلا، يحمّلني وزر ما حصل كأنني من زحف على أرضهم وحرمهم متعة الذهاب إلى الحانة عشية السبت.
كنت في وعيهم جاسوسا وفي أحسن الأحوال جنديا معاديا و في أسوئها سمعتهم يشتمون عورة أبويّ ويذكرونني بفضل فرنسا علي...أي فضل لفرنسا في ما أصاب لحمي وذاكرتي...؟ تدفقت الجحافل نحو التلة الأثرية تقدما بطيئا تسبقها خسائر الفرنسيين الفادحة في العدة والعتاد، حتى خشي القائد فناء كل الجنود و امتلأ وجهه حمرة وغضبا و هو يشاهد أشلاء القتلى تملأ الأرجاء.
كان القائد الحائر مشتتا بين تفقد الأشلاء و مخاطبة رؤسائه بالراديو. ثم تقرّر الانسحاب إلى العمق، إذ لم يترك لهم الجنرال المخلوع "جوفري" ما به يصدّون هذه الأعداد معتقدا أن الألمان لن يركزوا الهجوم على تلة أثرية عديمة الفائدة، لذلك سحب مدفعيته كما سحب مدفعيتنا و ترك الجنود عراة تحت جحيم القذائف المريعة...كان القائد يحدّث نفسه بكل هذا كأنه أعلم بالأرض من الجنرال "جوفري"،و يزعق صارخا " Merde اللعنة" كرّرها مرارا حتى صار اللفظ من جنس المقام، والحقيقة أنني لم أكن معنيا بتحاليله العسكرية و لم أعد مهتما بالاندفاع الألماني ولكن وجب الاعتراف أنني كنت أجني نتائج أخطائي وأخطائهم جميعا. وطّنت نفسي على الصّمت، فما عاد ثمّة ما يقال، و ما عدت راغبا في الجدل حيال هذه المهزلة...تفصلني عن رصاص الغاضبين والأسياد المختبئين ضغطة واحدة على الزناد، و ما أسعفني الجبناء بميتة كم اشتهيتها لتريحني مما إنا فيه من ندم على التورط في حرب لم تكن تعني الملونين من أنصاف الهويات أمثالي.
لبثت متكورا حاني الظهر يداي إلى الوراء تغوصان في وحل الخندق وذهني مربع للخيبة...خيالات ندية تمر صاخبة صخب الأصوات العنيفة التي راحت تتدافع من عمق الغابة حتى مرمى الرشاشات الفرنسية.

أعداد الفرنسيين في تناقص مطرد، ينسحبون إلى الشمال للاتصال بسكة الحديد، و أمر القائد بتجهيز أسيره للرحلة، فألبسوني "خيش"الخبز، حينها لعبت بحلقي روائح قمح بلادي المسلوب، فبكيت "الطاهر" و"المنصف" أعتى ما يكون البكاء. أشعر و أنا في "الخيش" بخطوات الجنود الخائفين تتضاءل. كنت عبئا يعيق حركتهم الحثيثة...و تحفّزت ليأسهم مني...انتظرت مقتلي، لكنّهم صبروا عليّ فكنت مقتولا بلا موت، فاقد النبض، أجوف...الآن أدرك أني ما كنت داخل "الخيش" حقا بل كُنتُه.

كان القائد يوجّه عملية التقهقر التي انتظرها إلى الليل، و أبقى سرية صغيرة للتمويه و بقيت مع الباقية لا يهزّني نصر ولا تنهكني هزيمة مكتفيا بخيبة مسعاي و سوء حظي ودمي المراق في سبيل الوهم. الآن أزفت لحظتي، عاد أحدهم يتفقد الخيش و شرع من بقي في مشاغلة الألمان بطلقات متتالية عشوائية صوب السماء وهم يضحكون مستبشرين بقرب الخلاص من الجحيم. ذكرت بلائي في الأردين Ardennes، و استبسالنا في رد الزحف على تخلف بنادقنا و قلة فاعليتها فبكيت ثانية حتى تندّى فتات الخبز. وسمعني أحدهم فعالج ألمي بعقب رشاشه متوعدا:

"C'est rien tout ça. Attends, bâtard, ton sort fatal. Tu le connaîtras…Tu vas longtemps pleurer "

"كل هذا هيّن، انتظر أيها اللقيط! ستدرك حتفك المقضي، و ستبكي طويلا"

ثم جاء وقت هدأ فيه الرصاص .فتكلمت الأحذية على مرج التلة الندي متجهة نحو الأسفل في الغابة الشمالية حيث يمكن للأرانب أن تعاود اختباءها وكشف أحد الخائفين رأس يوسف المنصري و أراد أن يذبحه بالحربة لولا أن نهره القائد الذي حرص على سلامة سبي عزيز سيمكّنه من انسحاب معقول و هزيمة بطعم مختلف، كان الجنرال لوسيان المخدوع يقول:

" On peut toujours sortir vainqueur d'une façon ou d'une autre "

" بطريقة أو بأخرى، بإمكان المرء أن ينتصر دوما"

اتخذ المنسحبون طريقهم إلى المنحدر، غاصت السيقان في وحل و مياه ضحلة أسمعته خريرها...أحسّ ببردها يجمد أصابعه في الحذاء المتهرئ. ثم إذا هم يخوضون في نهر بلغ سطحه الأذقان. تطوّع أحد الجنود لمساعدته على تخطيه، فكلما عاقه الوحل دفعه بعقب الرشاش حتى دمي قفاه. خلصوا بعد ثلاث ساعات من بداية التقهقر إلى أودية و أحراش متشابكة الأغصان. ألقى الجنود أحمالهم

على الأرض. أراد أن يصنع مثلهم فركلوه و ألزمَ الوقوفَ. أصوات المدافع البعيدة تشيّع المهزلة، و الجو صقيع قاس ثقيل، بينما راحت كتل بليدة تتقاذف على الخيش، فعلم أنّه الثـّلج.
صنيع فرنسا البار متهم بالخيانة اليوم، و اللحم راح سدى. لا قتل الألمان يشفع لي و لا البطولات التي دونتها في الميدان، الآن يعود وهج التذكر كالحرام، يافعا يطبق على الفكر فيرتد إليّ وعي الندم. الآن أرى في الخيش ما لم تبصره عيناي خارجه، و لم تسمعه أذناي، الآن تمثل قدّامي الحقيقة صريحة فصيحة، قد خلعت عنها المعاطف و الأزرار اللامعة و لا مكان. إنما هو عبث الوهم، و حلم التوحد في المستحيل...فلتمتد المسيرة أو فلتقف: سواء أمران معدنهما التذكر بل سواء أمران معدنهما الجزاء. فلتفتح حرابكم جراحي: ما أنا إلا جرح لا ينام...
ذي الأرض تستقبلني بعِثارها و دِثارها....أسير في الليل البهيم أو يسيرون بي...بلغ مني الفتور مبلغه حتى تعودت المشي و النوم معا. أحيانا ينشط أحد الجنود فيفسد غفوتي بركلة أو لطمة، أما البصاق فقد برى فضلَ الصمود في الأردين Ardennes و كان جزاء مقيما...
طالت الرحلة واعتقدت أنها لن تنتهي أبدا. لم أعد واعيا بالتضاريس أو الأبعاد، و ما كان ذلك شاغلي....أحصيت في البداية تبادل الأيدي عليّ، وجدتها خمسا فستا، ثم ضاع العدد بين الغفوات و الصفعات...ارتدّ وجع التذكر...رأيت مامادو في أبناء عمه يقهقهون، يشوون الكبد البشري ويحرمونني، و رأيت سيدي الحاج ناصف يشيعني صحبة "المنصف" مطأطئين...وانتبهت فكانت الطريق تستقبلني بأحجار ناتئة كأصبع "المنصف" المعيب، و ضحضاح بارد يتسرب إلى الحذاء من الثقوب، وذاب الثلج فوق الرأس فالتصق الخيش بجسدي، بوجهي فكأننا واحد.
بعد ليلة و نهار سمعت دوي سيارات و لغطا و أرجلا تسرع و أخرى ترقل بكاء و ترحيبا و سمعت صوت القطار. جنود يرحلون و آخرون يقبلون، وجوم و ابتسامات جاهلة غافلة...
اقترب منه قائد وحدة أخرى كشف الخيش. أنشأ يضحك و قال كالمستهزئ:

- C'est ce que tu appelles un espion ? Un misérable arabe dans un costume allemand!!?

- أهذا من تسميه جاسوسا؟ عربي بائس في ثياب ألمانية؟! !

نفث في وجهي دخان سيجارته كالمحقر المستفهم. أردت أن أدافع عن نفسي وأبرئ موقفي، فصدّني و لم يخرج من بين لحييّ غير تأتأة و عجمة. التفتَ إلى القائد الذي صاحبني في الرحلة مخاطبا:

- Quel sera son sort, ce jeune arabe ? Je ne sais pas au juste! Enfermez-le. - لست أدري، ما سيؤول إليه مصير هذا العربي؟ اسجنوه.

و أضاف:

- Ne le privez pas de la lumière du bon dieu. - لا تحرموه نور الله

كانت تلك أفضل الكلمات التي سمعها يوسف المنصري منذ أن قبض عليه متلبسا بجريمة البقاء حيا. حاول القائد الذي رافقه أن يعترض أو يبدي امتعاضه، لكن رئيسه كان قد فارق المكان، فجن جنونه و انتهى الموقف بأن ضربه ضربة فجّرت جرح قفاه وأفقدته الوعي.....

ظلّ عامة يومه يقلّب وجهه في حشيّة الحلفاء يتنفّس فيها العبق القديم. جهد في النوم ما استطاع، و لكن الخطى الكثيرة في البيت، أفشلت رغبته فبقي يصطك يبتغي القيام، عازفا عنه. ووجد أصوات النساء المهنئات والزغاريد تستبقه و تحبسه. كأنه كره أن تكون السلامةُ موضوع التّهنئة. ألفى هسهسات الإشفاق المنبعثة من الأفواه الخربة تفتات من عزمه...طرقت كلمة مسكين سمعه أكثر المرات، و سمع أحاديث عن أهوال الحرب مما لم يروه و لم يشاهده...الكلمات تطبق على صدره فيعيد تقلّبه في مرقده الخشن. أخبار الحرب تخترق السقف و الجدران و تصله حارة تردّ إليه وهج الذكريات الأليمة، و بقي مشروع القيام مؤجلا. تطلّ عليه والدته، تسأل عن حاله ،فيتعلل بالتعب، حتى ولى النهار، و ثقلت الخطى، و قل عدد الألسنة في الحوش.

اجتمعت النسوة أمام الأبواب كشأنهن في سائر الأيام، و أما هو فكان يُلقي السمع فتقع في أذنيه أسماء موحية مألوفة و أخرى لا معنى لها لديه، ويصطدم في سير الخطاب بالمنصف و"الطاهر"، فيتكوّر على نفسه، يصمّ المسامع و المدامع

و يحشو رأسه في اللّحاف. لا الذاكرة يسعفها النّسيان و لا الألسن كفّت عن اللـّهج، إنما هو قدر الأمس في تجدد. يهرب ببصره إلى السقف، خشبه الندي يذكّره زنزانة يتساقط منها الماء باردا على جسده المضرج بالدماء من أثر التعذيب...يحول عينيه إلى الجدران، فتنتأ الثقوب توقظ أثر الحربة في صدر "المنصف"...ثم إذا هو يدس رأسه في اللحاف فيشم رائحة البخور مطبقة على أنفاسه المتعبة...ضاق بما لقي، و قام من مرقده بعد أن لبس معطفه يريد الباب هاربا من قرف الماضي اللعين. وقبل أن تمتد يده إلى "رتَاج" باب الوليّة الصالحة، كانت "فاطمة" تقف أمامه فاصطدم بها...اندسّت يده في صدرها لقصر في قامتها غير معيب. أغمضتْ عينيها حياء، فسحب يده على وجل و وقف جامدا، ثم سألها:

- وينهم ما ثمّه حد في الدار ؟

- أختك و أمك قدام الباب...و خوك ما زال في الحانوت.

- و انت لا باس "فاطمة"؟

تلكأت...وجدت حرجا في البوح، فرغم القرابة الدموية و رغم ما تجده نحوه من ألم الحب، فإنها كانت تقف منه وجلة حييّة...كانت معاطفه الطويلة تغتال كلماتها إعجابا و رهبة، فتكلّمه كلام الغريب لمثله، و كلما خلت إليه، مات اللفظ على شفتيها...أسلمت نفسها لنبض القلب المتسارع و تأتأة كان يوسف المنصري يفقه سرها و يهملها لأنه "لا يريد أن يدفن شبابه في الجهل ". و أحيانا تتحدى وجلها فترفع عينيها و يلاحظ ارتعاشها فيتغابى، و قد حلا له غزو الأفخاذ الفرنسية الوقحة التي خلعت رداء الحياء...

كانت "فاطمة" تعلم علاقته بأنجيليك ديشان Angélique Du Champs يتسكّع معها على جانبي الوادي، كلما تمتّع برخصة، فإذا استعدّ لموعده مدندنا و خطا في الزقاق، أحسّت كأنه يدوس قلبها، و تتصنع الابتسام حتّى لا يخونها وجهها، فتحيّيه، و يجيبها هو عجِلا دون الالتفات إليها. فتفرح لكونه لم يلحظ حزنها ثم تكره فرحها. كانت ترى فيه الحلم السّراب والحب المستحيل، فقنعت بنظرة الإغراء حينا وبرفع الصدر تنهدا..و اليوم يرتد إليها الأمل الواهم، فلا بد أن يكون له موقف من المصيبة التي أشرفت أن تحل بها بسبب والدها، وعلى اللحم أن يحمي لحمه...رأسها مرتع للأفكار المضطربة، مصفرّة الوجه متهدجة الصوت، قد غمّها ما هي فيه فاحتمت أنوثتها بالدموع.

قال مكررا:

-لا باس، "فاطمة" ؟

فردّت متنهدة دون أن تجد الجهد لرفع صدرها، فقد غلبها النفس حتى ليكاد المبصر يرى دفقات القلب من خلال "ثوبها" المطرز.
- لا باس، حبّيت نطّمّن عليك. ولد عمي ،آش تحس في روحك توّ؟
- انشا الله أفضل.
و انكتمَ، فانكتمتْ وأطرقت مليّا تعتمل الكلمات في حنجرتها ولا تجد سبيلا إلى الانعتاق، دائما تفقد حياله صراحة ضحكتها التي عُرفت بها عند الجميع، و بشاشتها التي تسرّ "المنيّبة". لقد وجدت الأمر مهيبا جادا وألفت ألفاظها تنتحر على شفتيها، في حين كان الزّقاق يلجّ بمناورات النسوة، يخضن في شؤونهن، و شؤون الرجال لا تسلم من تشدقهن. قالت زوجة عمّه تخاطب والدته :
- الحمد لله فرحك ربي بيوسف...مازال نكملو الفرحة بعرس يخلّينا نخرجو من ها الغم.
وكأنما أدركت "المنيّبة" مغزاها فقالت غامزة:
- عرس آشكون؟
- عرس يوسف...و علاش ما يعرّسش؟ ناقص؟ تبارك الله راجل يهد الحيط...
تدرك زوجة العم إعجاب "المنيّبة" بفاطمة. فكلّما سعت أمامها، رفعت إليها عينين مشرقتين وحاجبين متراقصين، و لم تكن تخجل من امتداح جسدها المثير و امتلاء صدرها وارتجاج ردفيها بكلمات تُطرب الفتاةَ، و كان أشدّ ما يملؤها أن توجِز "المنيّبة" المفاتن في لفظ "الخيرات". و أمّا الأمّ فكانت تبخس حظ ابنتها دفعا عن الغرور و صدّا للعين الحاسدة، فتقطع الحديث واصفة البنت بـ"البايرة". و اليوم تجد نفسها في موقف عصيب تحتاج معه إلى كيد النسوة، فكم أرّقها أن يدسّ الأب ابنته في جبّة رجل قد وضع رجلا في آخر الطريق و أخرى في مقبرة سيدي " إدريس ". فأردفت:
- كان عاطي ربي اللحم ما يتلوحش...آه كان جا "الطاهر" حي.
وبكت بدمع تعرف تأثيره على "المنيّبة" التي ردّت مطمئنة:
- يا مهبولة، و حق أمّي الخضراء، ما يصير كان خير، و لحمتنا تقعد في طبيخنا، و "الماء اللي ماشي للسّدرة، الزّاتونة أولى بيه".
تهلّل وجه زوجة العم و قد انتزعت من "المنيّبة" وعدا قاطعا للعمل على إبطال زواج لم ترده بزيجة طالما تمنّتها.
لم تكن "فاطمة" في "بيت أمي الخضراء" تعلم ما يدبّر أمام باب "الحوش". رفعت رأسها وسكبت في قلب يوسف المتعب نظرة لا تخطئ المعنى بعينين سوداوين غارقتين في الدموع. و صرّح جسدها بالعجز فصارت تنتفض انتفاضا وئيدا.

أجلسها حذوه على حشيّة الحلفاء، اقترب منها فتلامس الجنبان حتى أحسّ كشحا ممتلئا و فخذا مترعا تحت ركبته.
لم يشعر إلا بيده تحيط كتفيها. فكاد يغمى عليها. سألها سبب بكائها كأنّما لم يعد يعلم عمق تلك النّظرة وكأنّما لم يتنازل "الطاهر" ويحدّثه حديث الأخ الذليل يخاف على أخته الضياع في حب يائس.
و كرّر السؤال، فزاد قلبها دفقا، ورأسها انخفاضا. سقطت "فولارتها" فانثال شعرها الفاحم المشبع بزيت الزيتون على وجهها وكتفيها حتى غطى السواد ذراعه، و غاب هو في وهج الجمال العربي الصريح. و حدّثته نفسه أن يضمّها إليه ولكنّه خجل من ذكرى "الطاهر"، فانشلّت أصابعه المدّثرة بسواد الشَّعر اللّيليّ، ورأت "فاطمة" في عينيه التّيه فهربت خجلة تبتلع ريقها وتلعن اللسان المتعثر.
عدل يوسف المنصري عن الخروج للمرة المائة و اكتفى بصحن البيت يشبعه بنسائم الخريف الرطبة. يمدّ يده، يتحسّس إصبع رجله المتورم الذي لاحت عليه زرقة ذكّرته "المنصف" رحمه الله.
انفضّت مجالس الزقاق إلى السّقائف وغاب الضوء في أذان المغرب. تحلقت الأم والبنت حوله...لحقت بهما زوجة العمّ تحمل كأسيْ شاي أعطت إحداهما "المنيّبة" ومدّت الأخرى للعائد المريض. فحدجت الأمّ ابنها بنظرة قاسية وسعلت حتى كاد بلعومها يصدر من مكانه. تناول يوسف الكأس و لم يقربها...كانت "المنيّبة" تخشى على أبنائها السّحر من أقرب الأقارب. فهمت زوجة العمّ و تضاحكت وهي تسأل العائد عن فرنسا وبناتها ونسائها.
- ما قلتلنا شي ، يا وليدي على فرانسا؟ وبنات فرانسا؟ ما عجبك فيهن شي؟
فردّ، وقد وجد طريقا إلى الابتسام:
- فرانسا ما ورّتنا كان الويل.
كاد لسانه ينزلق إلى مأساة اعتقاله لولا أن كبح نفسه وأردف:
- خذونا من الطبق لبيت النار. كوشة حامية. والأنثى ما شفناها كان في الدخول والخروج.
فحرّكت رأسها سائلة، وهي عادتها إذا تغابت:
- وهاكي بنت المعلم "انجي لك "؟ وبنت الكوميسار تي، آش اسمها هاكي المهبولة؟
تدخّلت "المنيّبة" مقوّمة:
- اسمها "انجي لوك".مش "انجي لك" وبنت الكوميسار مهبولة كيفاش ناخذوها؟

تفاجأ يوسف المنصري من ذيوع أخباره فشعر بالدم يغزو أذنيه و تفقّد من الإحراج إصبعه المحروق لكن زوجة العم أضافت:
- وليدي ، خوك "الطاهر"، الله يرحمه، ما يدس علينا شي.
فقال هو كالناهي :
- ما بقيت نفكر في حد.
أمّا "الزّهرة" فلزمت الصّمت، إنها تعلم غايات هذا الخطاب، و على حبّها "فاطمة" فإنها تكره أن تتزوّج قبلها، في هذه الأثناء دخل ناصف يجرّ رجليه مثقلا، متأفّفا وألقى بثقله على بساط "وِذرِفِيّ" متهالك، و قد اتقدت عيناه غضبا وقال حنِقًا:
- الكلب عبّود ! عارف نهار نخرّجله مصارينة.
فصاحت "المنيّبة" ناهرة.
- آش بينك وبينه؟ راجل في عمر باباك الله يرحمه.
فردّ وقد لعب به لفظ الرجولة في حديثها:
- راجل ؟ الشّيب والعيب.
وجد مناصرة من زوجة العم :" آش خص يموت. خليه يريّح ويرتاح. ربّي يخلّص المغبونة بنتي من نتانته".
لم يفهم يوسف المنصري الرّبط بين عبّود و ابنة عمه...لكنّه خشي على أخيه الغضب، كان يعرفه عصبي المزاج. فقال مستفهما:
-شبيها الدار شاعلة، فهمونا !
و رمى بكأس الشاي أمامه مغضبا فأوقع في قلب الأمّ طمأنينة. سكت ناصف، و سكتت زوجة العم خشية أن تتهمها "المنيّبة" بالتحريض على عبّود، لكن "المنيّبة" لم تسكت فقالت آسفة:
- عبّود خطب بنت عمك "فاطمة"، و خوك وجعه الحال، محسوب الطفلة كيف أخته "الزّهرة"، خايف عليها، أمّا هو طايش، كان ربي يستر من أفعاله.
زمّ ناصف شفتين ظلّتا ترددان "أختي...أختي" وتنهّد بعمق مفضوح كمن أشرع صدره لألم مكتوم لم يجد الجرأة للفظه حيال أخيه وزوجة عمّه.
قال يوسف المنصري نائيا عن ذاكرته إلى حاضره :
-عمّي هبل...كيف يعطي "فاطمة" بنته لراجل شايب قريب ربي يتفكّره؟؟؟
فقالت زوجة العمّ وقد بلغ صبرها حدّه:
- كان عاطي ربي عائلة وحدة والقريب أولى.

فصاحت بها "المنيّبة" في لهجة زاجرة:
- قدّاش مرا خفيفة !...ما عندكش صبر؟
فانتهرت و اندفعت عابسة الوجه تريد الباب. التفتت وراءها فشيّعتها "المنيّبة" بغمز خفف وطء التوبيخ. دلف ناصف إلى مقصورته تفوح منه رائحة الحشيش فهو لا يكاد يفقه من الغيظ شيئا. أراد أخوه أن يلحق به ليسأله فجذبته أمه من كمّه و أجلسته في شأن. قالت:
- تو وليدي علمك بحكاية بنت عمك. وأنت مش صغير. الطفلة تحظ العرس وانت أكبدي لوقتاش باقي .أندادك يقرّوا في ذراريهم و "الطاهر" ولد عمك كان جا حي راهو زادة معرّس. آش قولك نخطبولك "فاطمة"، بنيّة باهية صباحها يذهب الغمّة.
سمع ناصف حديث أمه فصاح من المقصورة و أطلق لسانه بمزيج من السبّ والهرج وصفق الباب صفقة خلعت الرّتاج، وتحرّك نحو الزّقاق لا يُسمع منه غير الشكوى "لا....لا...آش بيكم بهايم ما تفهموش"
قام يوسف من مجلسه ليلحق بأخيه فأمسك به في عتبة الباب .التفت ناصف بعينين متوعدتين وفم مزبد:"إنت..ابعدني". وسحب بلوزته من قبضة أخيه المتفاجئ.
فعاد إلى مجلسه و قد خيّم على البيت وجوم مقيت.
انتظرت الأم من الابن ردّا، فلمّا لم تجد في صمته شفاء، ترددت برهة كأنما تزن الكلمات ثم سألته:
- آش قلت وليدي ؟
فقال وقد اضطربت في ذهنه الأفكار:
- يما مش وقته...كل شي في وقته.
و ظل يردد تلك الكلمات يداوي بها ذاكرة آلامه التي لم تكن أبدا في أوانها وما كان يجب لها من أوان أصلا.
همهمت "المنيّبة" وحاولت أن تعيد الرجاء فأسكتها "بأفّ" رغّبتها عن الإلحاح.
دخل إلى بيت "أمي الخضراء"، خلع معطفه والبنطلون و أبدلهما بـ"بلوزة" والده و"سرواله العربي" .قدمت "الزّهرة" جفنة "الكسكسي" وعادت الحلقة أضيق في غياب ناصف، و قبل أن يسألها تأخير العشاء إلى حين عودة أخيه قالت الأم :" وقت اللي يجي ياكل".
حاول أن يرضي أمه بالأكل فأصاب عدة ملاعق و دفع "قدّيدة" بشحمتها إلى أخته التي أقسمت بسيدي الحاج ناصف أن يأكلها، تشادا في دفعها حتى صارت خارج الطبق. فسارعت إلى مسحها ودفعتها إلى فم أخيها وهو يجد لصنيعها في نفسه

رفضا وقرفا فمضغها ثم لفظها. ولج إلى مرقده مترنحا يتمتم بكلمات المهزلة الجديدة.
الزمن يعرّيك يا يوسف المنصري و"المنيّبة" تخصف على عوراتك، هل أنت أهل للموتورين الأقرباء ؟ أأنت كفء الطهر حتى يزوجوكه ؟ أما كان في الوحدة ما يكفي حتى يسلّطوا عليك محنة العدد؟ أليس في الدّنيا رجال فيذروك لوزرك؟ بعض الكلم يصدر من فمك عبوسا، و بعضه تكفلت به حركات اليدين تغطيان الوجه حينا وحينا تضربان كفّا بكفّ.
تمثل أمامك "فاطمة" بدموعها، فأخوها القتيل فزوجة العم فصياح ناصف، كل ذلك في غير ترتيب كما حياتك مدفوعة إلى الأمام إلى مهوى الخاسرين الأغبياء.
الآن يُطلب إليك أن تكون راعيا وأنت الذئب الخسيس والوغد أنت و وزر الميّتين.
ضاق صدره عندما تراءى له تاريخه يمضي دون أن تكون له كلمة مفردة يقولها في أوانها كما يقولها الرجال. طافت به الذكريات، رأى "المنصف" يتغيّر لونه إلى زرقة كريهة مؤلمة، و "الطاهر" رآه غارقا في الدم، يتودّد إليه كي يتزوج فاطمة و يلومه في ابنة "الكوميسار".
وجد نفسَه آخر من قد يكون أهلا لها بل آخر من لا يكونون لها أكفاء، فتفل في وجهه مرتين و أفضى إلى اللحاف كمن يبتغي أن يتشيّأ في اللاشيء.
كان المعطف بجانبي كلما امتدت يدي في الظلمة أصدرت صرّة الرسائل خشخشة أعرفها منذ أن فتشت معطف "المنصف" أبحث فيه وَهْمَ أن يكون غير الذي أعرف، وكان هو هو. أحاول أن أنسى فقط، أن أتنفس كالآخرين دون أن أشم قذارة ما أتيت، أن أبصر العالم بسيطا، و أخرج كما الرجال فأرفع عيني في أعينهم دون أن أشعر بخطوبي وذنوبي. فتعسا لذاكرة ملؤها خزي لا يفتر.
أهرب من قرف "الطاهر" وأخته و أمه، من "المنصف" من كل شيء، فتتفتّح من النسيان ذات العينين الزرقاوين، أطردها فتلحّ مليّا بشفتيها الرّفيعتين كأنّما اغتسلتا في نهر"السّين" زمن الأميرات. أحاول أن أنسى عذوبة الفرنسية حين تنطقها. لله كم عذبتك يا أنجيليك !Angélique كنت و الألم يهصر قلبي أمارس فيها الانتقام، فأخطر في يأسها، و أنأى كلما رغبت. طالما حمّلتها وزر فرنسا. و اليوم فيم تذكّرها و قد نسلت فرنسا مزيدا من الأوزار؟
أحاول أن أكون كما يجب لي أن أكون، أن أعتذر عن وقاحتي وخيانتي لها أولا، و أعتذر عن كلفي بها ثانيا، فما أنا إلا أنا دون وهم الأزرار أو الحلول في جلدتهم.

Angélique أنجيليك تقبل على الذهن بصفاء عينيها بعذوبة لفظها، بساقيها العجفاوين، فأطردها ثم تعاود المثول فأنأى بالبصر والعقل إلى اللحاف، لا بد أن أتأهب لدور لست له أهلا.
كنت والوقت يهدّ مسيرتي أفارق واحدة لأخرى وكم كان سبب اقتراني بابنة "الكوميسار"مقرفا. اشتريت الوقاحة بالشِّعر، و الشبق بالعذوبة والطمع في المنصب بالحب، و رجوت النسيان فما زادني إلا تذكرا. الآن أودّ العودة واللحم يبتغي غير الذي أبغي. تبّا لفصول مهزلة تضع قاتل الأخ في غير موضعه. أنا الذي تركت "فاطمة" من أجل أنجيليك Angélique التي سكبتُ في أذنيها عشقا لم يستطعه "الطاهر" الخجول. أنا الذي تركت "فاطمة" ثم فارقت أنجيليك Angélique إلى المختبلة ابنة "الكوميسار". أنا قاتل "الطاهر". أفليس في الكون كائن أشرف لحفظ اللّحم من الضياع؟
أحاول ترتيب نفسي بنفسي لأكون حيث يجب أن أكون، و أن أنسى رغبة الاعتراف بما اقترفته يداي في حقهم. أحاول أن أنسى أعذب ذاكرة في حياتي: ذكرى التي تأخذني في صدرها الصغير، ترشدني إلى متاهات الحلم الباريسي، وتأكلني بصفاء عينيها. ثم ماذا من الذاكرة؟...قطرات الدم المستباح لا تزال تنسكب على الثلج كأنما حدث ذلك توا، وصوت الرصاصة التي أردت "الطاهر" تطنّ في أذنيّ، و أنا أفكر في من نسيتها دهرا، كأن العقل لا يشتغل إلا رجعا إلى العلاّت القديمة، يستحدثها نكاية...أيّ خلط و أية مهزلة توكل إلى الذئب رعي الأغنام؟ و أيّ قدر يدفع إلى عشق سليلة الأعداء؟
أمدّ يدي فتنطق صرة الرسائل...أميل عنها فتصطدم رجلي بحجر التيمم، أجد له صدى في إصبعي المتورم يذكرني إصبع "المنصف" رحمه الله...آلام الماضي تنتفض رجعيا، تحيي الوعي بالأخطاء...أسلمت رأسي لعنف الذكريات وتحديات الراهن التي لم تعد تتلخص في أن أقول أو لا أقول بل تعدتها إلى أن أقبل أو أرفض، إن أنا قبلت، دنست "فاطمة" مرتين و إن أنا رفضت فذاك وفاء لتاريخي، فما أنا إلا رجل تعود التفريط في اللحم والدم....أشعر بالصداع يعصر رأسي، يحرك فيه كل عرق، يحفزه للتذكر...لا شيء غير التذكار...
أسلم يوسف المنصري جسده للسكون،عله يصيب من النوم ما ينسيه، و إن كان تعود في الأحلام المشاهد عينها...
تأتي إليه من الجدران أصوات منغّمة "لحضرة" متّقدة في مقام "سيدي الحاج ناصف"، أذكارها كالماء تتخلل الزقاق الضيّق، فيقبل ترجيعها من الجهات الأربع، من الجدران الندية، من الشقوق، من العروق، من الخشب، كل حرف

منها يفضح هزيمتي، كل لحن يكشف سرا، و يوغل في جراحي فيدميها...أشعر بالدماء ترتفع و وتيرةَ النقرات المتصاعدة..تطوف بي الخيالات، أحسّها تتشقى، و أرى "سيدي الحاج ناصف" نفسه يلفّني بدثار سميك. أراه يعبث بمعطفي ثم يَبكيني واجما عند قدميّ. لست أخشى إلاّ أن يكون ختم المسير، وما ثمّ ما أفعل لانتشال نفسي من درك الخزي الذي انتهت إليه...أراه يطوف بي...يقترب من الإصبع المتورم وجها شاحبا ولحية ضاع بياضها في طلاء الجدران، أو في "لحفة" والدي المعلقة، هو ذا يتحسس الإصبع، و الأهازيج القادمة من المقام غدت صريحة:

شفّنـــي وجـد الغــرام   من حبيب لا ينــام
مبــصرٍ ذاتـــي و مـــا   يبصرُ الناسُ النيـام

للكلمات في الحضرة وهج طالما أبكاه، ولنقرات دفوفها صدى في صدره. أغرق يوسف المنصري في البكاء،وأهوى الوليّ على الإصبع بقرصة قوية انتفض لها كانتفاض الصريع، وغاب في مجاز الكلمات.

لست أذكر ما حدث تماما. أفقت من غيبوبة طويلة، فوجدت رأسي ولحيتي محلوقين، و إذا كل شيء ملغز، و كذا المكان يفضي إلى بوابات حديدية ضخمة ظلّت تصغر كلما تقدموا بي إلى الأمام، دهاليز فأقبية معتمة بها رائحة عرق قديم...دُفِعت إلى زنزانة ضيقة خانقة...سرير لا يفي مدّ السّاقين في جهة...وفي الأخرى كنيف إفرنجيّ انتصبت فوقه قناة تصريف نديّة متكوّنة من كعوب فخّارية بنّيّة جوفاء تتقاطر منها المياه القذرة، كأنّما العالم كلّه يلقي ببرازه فوقي...نافذة مُعلّقة بعرض شبرين تطلّ على عالم مجهول متعلّق بقضبان حديديّة صدئة باردة...جدران إسمنتيّة تعبق بأنفاس قديمة...

مرّت ثلاث ليال شهدتُ غروبها من النافذة الصغيرة. تقتلني الحيرة وتغتالني الأسئلة، أنتظر مقدمهم، أنتظر اعتذارهم، و هل ينفع في ما أنا فيه اعتذار؟ لا بدّ

أن يكتشفوا فداحة ما صنعوا، و ينتبهوا أخيرا إلى الحقيقة. كنت أنتظر وهمًا، و طال الوقت فبدأت أيأس من الحقيقة.
كانوا يدفعون إليّ الطعام مرّتين في اليوم من خلال كوّة تقع فوق العارضة السفلى لباب زنزانتي...طعام ركيك هو ماء تضطرب فيه حبات مفردة من الجلبان، و قشر بصل أزرق غير ناضج يتراقص طربا لخيبتي...
ذي الليلة الرابعة أشعر بلحيتي تتنأ على نحو لم أعهده منذ وقت طويل. أنتظر أن يأتوا للاعتراف بما كانوا عنه غافلين، أن يدركوا ما ارتكبته فرنسا في حق جندي بذل من أجلها بمسدسه و بندقيته ما لم يبذله الفرنسيون أنفسهم برشاشاتهم...أعيش توقعا واهما أن يفك أحدهم أحجيتي...
أحد المساجين يترنم بأغنية أعرفها، كان الرقيب أوليفيي Olivier يردّدها كلـّما استعدّ لوصال زوجة الجنرال المخدوع، أغنية تتغزّل بالعينين الزّرقاوين، كانت الكلمات تحفر في ذاكرتي تهلّ من البهو الطويل، ترافقها نقرات ثقيلة موقـّعة على حديد باب أملس يعلم الله موقعه من هذه الزنازين الكثيرة. كانت النّقرات تتردّد في العتمة، تصطكّ، تصطدم بالصّفائح فيثقل وقعها وتصطنع بالحديد ترجيعا يوغل في الذاكرة، يعرّي الحلقات المفرغة، فأرى احتراقي في الحروف، أرى هربي من الهرب...
قديما رغبت عن "فاطمة" إلى أنجيليك Angéliqueثم منها إلى ابنة المفتش ثم إلى زوجة الجنرال، نأيت عن لحم "الطاهر" إلى ملحمة "المنصف"، و العينان الزرقاوان كانتا مهربي من كلّ شيء إلى كل شيء، Angéliqueأنجيليك وحدها تعرف ذنوبي فتغفرها، و تسمح لدموعي بالسقوط في بحر عينيها العميق...
ذي الليلة الرابعة. قد ولّى زمان الهروب وانهار الوهم...انقضيت إلا ذكرى الهزائم المتواليات. كل واحدة منهن تسلمني إلى صنوها، حتى عادت سمة لوجودي بل حتى اختزلتني. و ها أنا انتظر حتى لم يعد للانتظار معنى. تشابهت السّاعات والدّقائق، فالزّمن نقطة ملساء متورّمة. الأيّام تمر بلون واحد لا إيحاء فيه غير النكران و الإهمال:لا أحد يتكلّم، أو يشتم، أو يعطس، لا أحد يمرّ، أو يأمر، أو ينهى، و إنّما هو صحن المرق الركيك يُقدّم في وقت صار معلوما من قدر الضوء الموجود بالزنزانة.
أصبحت لحيتي في قبضتي، أعتقد أنّي تجاوزت الأسبوع الثالث...اعتدت كل الأشكال المرسومة على الجدران. لا شيء يمكن القيام به في الزّنازين غير ما يمكن أن تدفع به عنك الجنون. كنت أحصي كل الأشكال التي رسمها الماء المتدفق من قناة التصريف على الجدران والحروف التي خلفها السجناء قبلي.

أميّز مواقعها، أثبّت ناظريّ ثم أغمض عينيّ لتذكّر مواقعها حتى مهرت في خريطتها. و أحيانا ينفلق مفصل القناة فتلفظ الكعوب المياه القذرة إلى أرضية الزنزانة و تتشبع الجدران. أندفِع إليها أشدّها ببعض لحافي أعيد إليها تماسكها، حتى إذا ما فرغت من ذلك التفتّ فإذا الجدران قد اتّخذت أشكالا و صورا جديدة لم آلفها، و إنما حملها الخراء والبول...كان بعض الرّسوم الحادثة واضحا صريحا قريبا أليفا، وجدت في أحدها وجه "الطاهر" و في آخر إصبع "المنصف" و أحيانا يتراءى لي رأس عبدولاي المنفلق. فأشيح عنها جميعا مركّزا على تلك التي ألفتها. صار أملي أن لا تنفلق القناة مخافة أن أنفضح أو يتعرّى ما واريته وهم النسيان. أملي أن لا تربو على الجدران تفاصيل عوراتي و أوزاري السابقة، فكنت أمضي السّاعات ممسكا مفاصل كعوب القناة مخافة أن تنطق بالأسرار...
أحيانا أفطن لوقفتي، فأسخر من نفسي، و أتفل في وجهي، ثم أضحك، ثم أفطن لضحكي و أبكي. لم أشكّ في أنني آيل إلى الجنون لا محالة. كنت خائفا من الصور الجديدة، من أسنان مامادو و وجه "الطاهر" السّاخر المتحدّي. وجدت برد السلامة في تحاشي الصور فتسمُّرت في وقفتي، اقتبلتُ السرير حيث الجدار لا يزال على أشكاله المألوفة. و كم قرّرت التوقف عن الوقوف بعزم أصطنعه فيضيع في الخوف ثباتي. و كلّما جئت بما تبقّى من الإرادة ألفيت تاريخي أثبتَ.
أحيانا تسوّل لي نفسي أنّي قادر على تحمّل تلك النّظرة، ألتفتُ لاستراق النظر، فأرى عيني "الطاهر" شاخصتين، متحفّزتين، تخترقان عزمي فأهرب إلى الضحك والبكاء. يمرّ دهر على الوقوف فتغالبني نفسي توهمني بجفاف الأشكال، أصارعها فتصرعني، أعيد استراق النظر فتشخص العينان من جديد، فأهرب للمرة الألف ببصري إلى الجُدُرِ المحايدة الأليفة حيث الأشكال البريئة تنطق بما يجب. أثبّت قدميّ، أشدّ يديّ على القناة، فكأنّ بها توازن الكون وبعدها الدمار، و كأنّ بها حكمة التذكر والنسيان معا، فإذا انتهيت منهما إليهما، عاد الصوت في الدهليز يتغنّى من جديد بالعينين الزرقاوين، و تأتي النقرات الثقيلة فكأنّما انفلقت بها قناة الأسرار والخيبات، حينها تولّدت أنجيليك Angélique وغاب الكون فنتأت الذاكرة.
صارت لحيتي في طول وجهي أو كادت. و لقد شغلت بها عن القناة لحظة، فاندفعت المياه من جديد، لتغرقني بولا و خراء. وتطلّب مني جبرها آخر خرقة جافة متبقية مما كان لحافا. لبثت حذرا، أراقب الأشكال الجديدة حتى إذا استمسكت أطلّ منها "الطاهر" و "المنصف". اقتنعت بأنهما سينقذان ما عجز عنه

الفرنسيون. ولّيت وجهي شطر السّرير، واقفا متسمّرا شادّا محور الكون، أحاول منع الجسد من الفتور من الالتفات.
طال نظري إلى السرير.هذا الضوء ينهار و لست أدري ألنا أخشى الوتر ذاته أم أخشى أن يكون على يدي "الطاهر" أعرَف الناس بخيبتي و جهلي وتضييعي لحمي. خار عزمي، وهنت قواي، أشعر بأصابعي عاجزة عن الحركة وبجسمي ثقيلا. أجد للدّم تخثّرا ينهار إلى القدمين المتورمتين، أحسست بجسدي ينهدّ إلى بركة من القذارة و برقبتي تلتفت كرها، هناك حيث كان "الطاهر" في انتظاري، فتناولني بملح الجدار و بالأدران ظلّ يلوي عنقي حتى اسودّت الدنيا، فكان وهم الخلاص......

كان لا بد لي من القيام، فما بقائي بالفراش إلا لمزيد من العذاب..يجب أن أخرج أن أرى نور الله لأشفَى منّي، من هول الأسرار التي حُمِّلتها، وما أنا بحاملها...أريد أن أخرُج علّني أحتال لعِلَلي فأجد طريقَ الاعتراف....أراني قد اكتفيت من الحشيّة الخشنة، و ليس لي إلى مزيد النوم حاجة، كنت أطلبه راجيا متوسلا ورِعا من الحقيقة، و كم كان عتيّا على ذاتي الخربة أن يتبدّل نومها غرقا في حريق الوعي.
مرّت على عودتي "جمعة" كاملة و أنا كما أنا طريح الفراش أفتعل المرض، والمرض أنا بما احتويت من الذنوب..تأتي عيون مشفقة كلّ يوم تفتح الباب وتلقي كلمات صارت لديّ ممجوجة مكروهة كرهي إحساسي بالندم ذاته...
خطوات أمي ما أبقت للنوم مجالا...خيوط الشمس الأولى تصل إلى المرقد من فرجات النافذة وتغري بالقيام...
على الصندوق الخشبي القديم بعض من ملابسي القديمة، وكلّ له قصة فتلك "السّورية" تذكرني سنوات المعهد، والجبّة نصيبي من ملابس أبي رحمة الله

عليه، و ذلك الزّي يعود بي إلى أيّام المفتش و ابنته المجنونة، و هذا المعطف آخر عللي، زينّت السلطات الفرنسيّة صدره بنياشين نحاسيّة تعتذر بها عن الاعتقال، و قد فقدت تلك الأنجم والدوائر بريقها أول ما وطأت قدماي تراب البلد...
جرّبت الجبّة فما وجدت لها طعما. ألفيتها أكبر مني، و ألفيتني فيها غريبا، انكشفت الساق عن الجرح القديم، فتركتها وجعلت المعطف رداء. خلعت النياشين، رميتها في الصندوق الخشبي تجاور "فرفر" سيدي الحاج ناصف وخنجره. دلفت إلى الشارع يشيّعني رجاء أمي أن ألتقي ناصفا و أنظر في أحواله ومكان مبيته البارحة.
كنت أعلم إلى أين أسير؟ لقد نبض القلب أوّل ما فتحت الباب وتخطيت المقام، أول ما لمست ريح "باب البحر" في رئتي. لقد اشتقت إلى بحر عينيها لأغسل فيه دموعي و إلى فرنسيتها لأنسى فيها آلام فرنسا، لكن كان عليّ لقاء ناصف في الدكان استباقا لمكروه قد يصيب به عبّودا.
كأنّما سُحِرت أو في قصدي عمى...أشتمّ رائحة فرنسا في ما وراء السّوق. كأنّما أتطلّع إلى حلم ضائع يعود إلى ما قبل الحرب يوم قابلت Angélique أنجيليك و رجتني أن أتخلى عن المركز والوظيفة القذرة. ما كانت تلك الملائكية الرفيقة مأخوذة بالأزرار الذهبية و ما كانت تغرم بالمجنّدين، إنّما نشأت "عرنسيّة" تعشق رائحة السّوق و تألف الأقواس والأبواب العتيقة التي أكرهها، و تحب أن تجلس على الأرض، و يحلو لها أن تستمع إلى تغزل "الطاهر" ببلده، و يسحرها ظل النخل. و كنت أتطلع إلى منظر غابات السّرو التي توشّي ستائر نوافذهم، و كانت تحب أن تحل محل أبيها في قاعة الدرس، و كنت إلى هيبة المجندين والقادة مشدودا. ترى ما المصير الذي أخذها بعد أن انقطعت أخبارها عني منذ سبع سنوات؟ آخر عهدي بها معلمة في نفس المدرسة التي صار لها السيد جاك ديشان Jacques Du Camps مديرا.
أسئلة كنت أطرحها و أنا أتخطّى الطريق متعثرا، تفترسني العيون بنظرات مشفقة لست لها أهلا و أخرى آسفة، و أخرى غاضبة ترى فيّ "بيّوعا" خان تونس كلها..فلو علموا ما اقترفت يداي؟...
دلفت إلى الشارع، تخطيت مقام "سيدي الحاج ناصف" الذي فاحت منه رائحة بخور الأمس ندية قديمة قوية حملتها نسائم الخريف..وجدت الوادي يترنم بمياه ضحلة، امتدّت على جانبيه نسوة يغسلن الصوف والثياب، يرفعن أصواتهن عمدا...إحداهن تترنم بأغنية شعبية شهيرة تصدح بها كلما مرّ أحد الرجال من الوادي:

وِلد الكالاني اللِّي هربْ علـيّ و خلانِـــي
جفاني و نْسَانِي و بدّلْـنِي بدَبَّوزهْ شـراب
بدّلنــي بْطاسَهْ يتكيّــفْ يزْهَـى كُمْبَاسَـــهْ
سلـّم في نَاسَهْ سكَنْ المَرْسَى بغير حساب

سمعت إحداهن تحييني، التفت، كانت "فاطمة" صحبة "الزّهرة" تغسلان في الوادي معا. حيّيتهما دون أن أقف. جانبت طريق "البلد" و"صاباطه" القائم إلى اليسار حيث ترتفع مئذنة "سيدي إدريس"، صرفت النظر عن الجنوب، واتخذت طريقي إلى الشمال..عليّ أن أتحدث إلى ناصف و قد أجد في ما أنا فيه سبيلا لتزويجه بابنة عمه. لقد وثقت أمي بذاتي الخربة، خالتني قادرا على إصلاح ما أفسدته. فلو كان لي ما لناصف من الجرأة لاتخذت سبيلي بعيدا عن الآثام. إنما أنا قلب مترع بالخواء و وجه فقد ماء الحياء. أيطلب إلى المعوج تقويم غيره؟ يا أم لقد "جئت تبكين في دار الدموع"...
دلفت إلى الشارع، و طلبت الشمال ،ماذا أقول لناصف؟ و ما الذي أستطيعه؟ أنا من استباح الدم، أأمنعه أن يكون رجلا و أن تكون له كلمة يقولها كما كلّ الرجال في عائلتنا، باستثنائي طبعا؟.أأطلب من ناصف حماية اللحم الذي شرّدته بشبقي وطمعي؟ فليكن ما يكون ! مالي أنا والزواج أدسّ فيه قذارتي و أستبيح في الأبرياء ما أبقى الزمان؟
دلفت إلى الطريق أطلب الشمال صافحا عن شارع الحدادين المؤدي إلى السوق. جانبته سائرا مع الوادي. أرغب في تجنّب "الحدّادة" و عبّود فيهم. أراه صورة الخصم الهازئ.
أخشى أن يروني في هذه الحال من الوهن...أشعر بخطواتي تتعثر بعيدان "الحلفاء" الحادة...أصوات المطارق الحديديّة ترافقني، تحفر في ذاكرتي، تستدعي زمن الاعتقال...نقرات موقّعة، حادّة ثقيلة تعيد إلى الذهن سيرة العسف...أسرِع الخطى كأنّما أهرُب منهم أو من نفسي. أحاول أن أتجنّب المطارق و المعارف، مطرقَ الرأسِ و قد دسست أغلبه بين أذني المعطف العسكري الكبير...
"ولد الشّاف" أراه يتبوّل وراء دكّانه، و أحيانا تحين منه التفاتة إلى ناحية الوادي حيث النّسوة يتضاحكن ويتظاهرن بالحياء، وذاك الحاج "إبراهيم وتّان" يسوق حماره و ذاك...صور لعيون مشفقة أو كارهة لا بد من تحاشيها.
اندسست في المعطف، أجرّب به التّخفّي عن النّاس فما كان إلا اختصارا لهويتي عندهم. أسمع أحدهم يناديني..توقفت ملتفتا. كان عبّود الكلب يسرع في اتجاهي،

لعله بصر بي من دكانه و هو أول الدكاكين في الشارع.كان يحمل مِنجلا غير مشحوذ، فأسنانه لا تختلف عن أسنان بقية الخلق في هذا البلد.
ناداني أولى وثانية. أمسكت عن المشي. ما كانت بي حاجة إلى رؤيته، هذا المتصابي النزق الكريه. توقفت إذن فتقدّم بارز الصدر قد فك أربعة أزرار فكأنّ شعر صدره صار رأسا من كثافته. خليع الجبة، في "سروال" متسخ علاه الصدأ، أخفى صلعته تحت "شاشية" قديمة مالت حمرتها إلى السواد من العرق...تقدّم مسلما معانقا فقد كانت تربطنا به خؤولة بعيدة ودم موغل في التاريخ.
وقف عبّود يسأل عن الأحوال ويحمد الله على السلامة محييا بحمدلة ثقيلة وبرود بيّن. كان مضطربا و لم تفلح قسماته في إخفاء ما بدا عليه من الغضب الشديد، كانوا جميعا فاشلين في إخفاء ملامحهم و أنت كنت تتلون كالحرباء فتئد الحقيقة و لا تسمح للأسرار بالبيان فترتاح.
بعد انتهاء بروتوكول السلام المملّ، جذبك عبّود جذبة خفيفة ذات معنى و اقترب منك في لهجة معاتبة:
- يا يوسف ولدي كلّم خوك يبعدني و يخطاني...راهو عيب اللي قاعد يعمل فيه.
- آشنهو عمل خويه ، عم عبو؟
- البارح، جاي سكران واقفلنا في باب الجامع...لا خلى ما قال: سب، وكفر و كلام ما يصلحش..كلمه يعيش ولدي.
- ...
- كلّمه ما كانش..
-باهي تو انّبهه
- ايه ...ما كانش ما يصير خير ...راني قاعد نشوف بالعشرة، وطرف الدم اللي يجمعنا، راني والله كان مش عيب تو نسيِّب عليه ولادي يمشمشوه.
لم يفاجأ يوسف المنصري من أفعال أخيه. وجد لتصرفه معنى عميقا أصيلا، بل تمنّى لو يكون محلّه في ما أتى لولا أن تجاوزته قيم الرجولة الحق، وانتماؤه إلى غير هذا العالم. ربّت على كتفي عبّود بحركة مطمئنة. ولكن الحدّاد المنفعل لم يقنع بالخطاب، إذ لم يجد من الحرارة ما يهدّئ ثورته، فأردف :
- و كان على هاك الطفلة راني واخذها واخذها، جاي يهدد فيّ...بالحرام ما تبات كان عندي، و اللي ناويه يعمله.
تصاعدت نبرة عبّود و بدأ خلق يتجمع غير بعيد عنهما ، فرد بلهجة حازمة ترى في ما قال تهديدا لما بقي له من الكرامة و غضب لأخيه فقال:

- هذا كلام زايد، الطفلة بنت عمنا.... والحق وخذانك فيها حرام !
فازداد عبّود غضبا وقال صائحا غامزا مصفقا بيديه:
- ما حرام الا الحرام، لا بعنا لنّصارى و لا شربنا معاهم ، و لا قتلنا معاهم تعرفنا ناس نخافو ربي.

-يكفي يا عبّود ! انت راجل كبير و ما يجيش منك العيب.
و سمع ابنه "الهادي" الزعيق فخرج من الورشة. أطل برأسه من زاوية الجدار يراقب، و نادى والده- والمطرقة في يده- كأنما يحدث السماء "تعالى سيدي ! ادخل ! وخلّينا من الطّحّانة !".
فقد يوسف توازنه وقد لعبت به الكلمات. فقفز إلى "الهادي"، يركل معدته و أردفه بلكمات أسقطته أرضا على كومة من المساحي و القواديم والمناجل. صرخ الأب فزعا، و هبّ لنجدة ابنه، فأهوى على كتف يوسف بمنجله حتى احتكّ الحديد بالعظم، و غاص المنجل بأسنانه المتباعدة في كومة الآلام والذكريات، حينها وجد من الألم ما أحسّه "المنصف" والحربة تخترق العظام. فصاح جاثيا على ركبتيه...ثم خرج "العبابيد" من دكاكينهم يركلون المعطف. كلّ ذلك بأعين النسوة اللائي لبثن يراقبن عنف الرجال و فنون الكلم البذيء. و هرولت "الزّهرة" نحو أخيها، حتى إذا انتهت إليه، طفقت تذبّ عنه الركل واللّكم. فتلقفتها الأيدي بالمس والجس إلا "ولد الشّاف"، و كان من العبابيد الطامعين في جمالها و نسبها، فقد أحاطها بيديه يحميها من أيادي الرجال وهي غائبة في الصراخ. و ما هي إلاّ لحظات حتى لحقت بها "فاطمة" باكية، ولما لم تسعفها الحلقة، أسرعت إلى السوق للاستنجاد بناصف. تخطّت شارع "الحدادة" و"الصيّاغة" حافية القدمين، و لعب الهواء بجسدها فطاش "فولارها" والتصق ثوبها بلحمها فبرزت "الخيرات" وكان الرجال يأكلونها بأعينهم حتى اليهود.
كان هو يحاول دفع "العبابيد" عنه، فلمّا أيقن بكثرتهم، ثبّت ركبتيه على الأرض شاخص العينين يتلقى اللكم بأذني المعطف، و راح يلفظ الكلام بلسان فرنسي كأنما به جنّة أو كأنّما تداخلت في ذهنه الأزمنة و الأمكنة فغدا الأوان في غير أوانه.
حينها أفاق الهادي وغاب هو عن الوعي...

لقد كان أمرا مفاجئا، فبعد أن اعتدت الزنزانة و بولها وجدرانها، بعد أن اعتدت الوقوف في وضعية المتصلب الخائف من الرسوم، و بعد أن أنِستُ إلى خوفي مدة لا يعلمها إلا الله، فُتِح الباب و جرّني ثلاثة: اثنان منهما بزي الجندرمة و آخر بزي مدني. سُحِبتُ على وجهي إلى قاعة فسيحة أظنها تقع قرب الأرض لكثرة الأصوات و دُنُوِّ هدير المحركات. فتَحْتُ عينيّ فما وجدتُ قناة التصريف و لا السرير و إنما هي جدران متشحة بحمرة دموية، و سلاسل معلقة، و أصفاد متدلية، و دلو مملوء يتصاعد بخاره، وكرسي في الوسط. فأيقنت أنها قد تكون بداية النهاية. مددت رأسي للقطع طائعا فركل أحدهم دبري. علمت حينها أنهم لا يريدون رأسي. قال أحدهم:

- Alors là, il faut tout cracher. - عليك، الآن، بلفظ كل شيء.

وسأل آخر :

- ton nom ? bâtard ! - ما اسمك؟ أيها اللقيط!

وقبل أن أجيب، سأل الثالث:

- Que faisais-tu près de nos tranchées de Verdun?

- ما الذي كنت تصنعه قرب خنادقنا بفردان؟

وعاد الأول يقول حنقا:

- Toujours pas de réponses ? Fils de pute! - ألا تجيب؟ يا ابن الزانية؟

ولكمني فرفعت إليه أنفا داميا و قلت ما يفترض أن يكون حقيقة مقنعة:

- Joseph Mansart, la deuxième armée, quatrième division.- جوزيف مانسارت الجيش الثاني، الفرقة الرابعة.

لم يقنعهم الجواب، راحوا يركلونني ويلكمونني مدّة. ثم لمّا غبت عن الوجود، أسندوني إلى الكرسي الحديدي. و عندما أفقت كرّر الثالث سؤاله فكرّرت الجواب. فعاد الرّكل أعنف وقد أصاب أغلب الأقدام وجهي فسال ماؤه. ثم سئِلت فأجبت فكان ما كان أول مرة، و ظل الخزي ينسل بعضه من بعض حتى أمر

أحدهم - و أظنه ذا اللباس المدني - أن أعلـّق. فجذبني الأول من "بيجامتي" فتمزّق ما بقي منها وكنت قد احتجت إلى بعضها في وقف نزيف قناة التصريف. عُلـّقتُ ثم صُلِبت. ثمّ أهوى بعضهم أو كلّهم على القدمين بعصا أذهبت البرد عن الأصابع. تعالى صياحي فتعالى ضحكهم. و كرّروا نفس الأسئلة فصمتّ.
تواصل مسلسل الضرب إلى ما شاء الله...ثم توقف..خرج ذو اللباس المدني و دخل آخر فكان منه ما كان من غيره و خرج بعد أن غبتُ مرتين. استلمني مدنيّ جديد و كان أسنّ من سابقه، شيخا أصهب، أشيب. نظر إليّ مليّا و الغليون في يده وأمر بإنزالي. جذب نفسا عميقا وقال:

- Dans quelle merde t'es-tu mis? Tous les papiers sont entre nos mains. T'es courageux, oui. Mais ton français, ta couleur aussi éveillent pas mal de soupçons, Autrement tout porte à croire que t'est un traître et…un traître, mon cher, ça doit être puni. Moncef Nassefi, c'est bien ça ton nom ?

- في أيّ مستنقع أوقعت نفسك؟ أوراقك كلها بين أيدينا. أنت شجاع حقا، لكن فرنسيتك، و لونك يوقظان شكوكا عدّة، بطريقة أخرى كل شيء يدفعنا إلى تصورك جاسوسا و...الجاسوس، يا عزيزي، يجب أن يعاقب. منصف ناصفي، أليس هذا اسمك؟
سكتّ، فجذب نفسا جديدا هادئا و أردف:

- Que faisais-tu dans le fort de Verdun? C'est Juste une question, après tu auras des droits comme les autres.

- ماذا كنت تصنع في حصن فردان؟ إنه سؤال بسيط، و ستكون لك من بعده حقوق كالآخرين.
قلت مصدقا صوت الحكمة ومنظر الوقار في غليونه :

- Je m'appelle joseph .Je vous ai dit la vérité. Je suis un soldat français, et j'étais en fuite.

- اسمي جوزيف. لقد أخبرتكم بالحقيقة. أنا جندي فرنسي هارب.
نفث الدخان بهدوء و أومأ برأسه فركلني أحدهم في وجهي حتّى أحسست بانكسار العرنين و انفجر الدم فاحمرّت الدنيا وانهالوا على ظهري العاري و مؤخرتي حتىّ لم أعد أشعر بالعصا تأكل من عظامي وغبت من جديد. صبّوا عليّ دلو ماء

حارّ مالح أيقظ الجروح. رفعتُ نصف عين، فكان الشيخ قد غادر القاعة و حلّ محلّه الأوّل فقال:

- Ton maudit nom ? Bâtard ! ما اسمك الملعون؟يا -!
اللقيط

- Joseph Mansart. - جوزيف مانسارت
.

- J'ai dis, quel est ton nom? مرة أخرى، ما -
اسمك؟

- Joseph… - جوزيف..

- Quel est ton nom !!? ما - !!
اسمك؟

كان جهد الكلام يذوي...ما عدت قادرا إلا على حرف الجيم، ألفظه، فيتهشم ضلع أو عظم أو يُفتح جرح في جارحة جديدة. فقدتُ الكلام تماما. أرفع رأسي أحاول أن أفهم ما يقال فلا أسمع إلا طنينا مفزعا.

أيقن يوسف المنصري بالهلاك طائعا من جديد. مدّ رأسه، وأطلق ضحكة ما ضحكها أحد من قبل. حينها غرّسوا عصيّهم في ظهره فغاب في أمنية الموت. ثم كفّ الضرب حينا تأخروا بعض الخطوات يتشاورون. فكان مجالا لاسترداد نفس متقطع بلهاث كلهاث الكلاب. اللحم كصيد ذبيح ينتظر الناهشة و الدم ينفجر من كل عضو سيلا يخضّب اللحية التي لامست الصدر وما وارت الآلام.

رفعت رأسي فصارت السلاسل قنوات تصريف، و طفقت تقترب هاربة وتهرب مقتربة. تحوّلت دوائرها المعلقة إلى كويرات متّحدة تتدحرج في تعاقب ثم رأيتها تنفجر ولما انغلقت عيناي دما، رأيتها تتصل حتى صارت في وقت واحد حبالا جوفاء وقنوات، ثم تنفجر فتتولد منها الصور لاثغة ساخرة كأنها ألسنة الشياطين تسرد تفاصيل ضعفي و وهني، و تحكي خيبتي، دوائر تحكي صدر "المنصف" المنخور و وجها كوجه "الطاهر"...بقع مستطيلة داكنة فكأنها الخراطيش، دماء منفجرة يتولد منها كل الرفاق الذين ماتوا سدى، و تلك منطقة بيضاء فكأنها رداء سيدي الحاج ناصف. حفل بهيج من الذكريات الشـّاطحة أتأمّلها حينا ثم أفرّ و أتّى الفرار. أحاول أن لا أكون لكي لا تكون الصور. و أوهم نفسي بنفسي. و أغري انتظاري بأني نسيت وما كنت أنسى. و يعيى انتظاري. الآن تكره عيناي وضع العمى، فأنظر بعض الذي كنت أخشى. هنالك تمّ لها الانتصار. رأيت الصور تعتريني عدوا و حبوا و تلقي بأسرارها في دمي، فأضحك حين أريد البكاء.

تقدّم أحدهم بخرقة يمسح عن عينيّ الخضاب. فكان كلّما مسح طرفا اتضحت به صور جديدة...

قال المحقق الأوّل أو الآخر فما عاد ذلك مهمّا لأن الوجوه في النكران سواء:

- Nous avons trouvé des lettres envoyées par un soldat français nommé Joseph Mansart, dont on ne connaît guère le sort. Quels liens as-tu avec ce traître? Et comment tu l’as connu? Quel rôle jouait ce caporal? Il parait que nous vivons l'ère des traîtres.

- لقد عثرنا على رسائل بعثها جندي فرنسي، يعلم الله مصيره، يدعى جوزيف مانسارت. فما الذي يربطك به؟ و كيف تعرّفت إليه؟ و ما الخطة التي شغلها هذا الرقيب؟..يبدو أننا نعيش عصر الخونة.

- mais je suis Joseph. Même si je ne veux plus l'être. Tel est le fardeau.

- لكنني أنا جوزيف، و إن اجتنبته كيانا.

- ذاك هو. الوزر.

- Moncef qui est-il alors ?

- من يكون منصف إذن؟

- Moncef était le cousin que j'ai tué pour la France. Merde ! Et les lettres étaient envoyées depuis longtemps.

- أما المنصف فكان القريب الذي صرعته في فرنسا، و أما الرسائل فقد بعثت من زمن بعيد.

- Et qu’est ce que tu faisais dans un costume allemand? Avec des papiers allemands??? Tu vas l'avouer oui ou non ? On ne va pas s’éterniser la dessus.

- ماذا كنت تدبر في زيّ ألماني؟بأوراق ألمانية؟؟؟ هل ستعترف أم لا؟ لن أنتظر جوابك دهرا.

- Moncef n'est plus. Je l'ai tué. Vous comprenez, je l’ai fait de mes sales mains. Et puis pour échapper à l’ennemi, je me suis servi de son manteau. C’est toute l’histoire. Suis-je coupable ? Sinon, pourquoi tout ce bordel. Comme c'est bizarre, c'est l'ami qui me juge.

- لقد مات المنصف. قتلته- لو تدرك- بيدي القذرتين، و لتجنب العدو لبست معطفه. فما أعجب أن يحاكمني الصديق...هذا كل ما في الأمر. أأنا مذنب؟ فإن لم أكن كذلك، فلم كل هذا الهراء؟

أردت أن أقول ما كان علي أن ألفظه. و على مقتهم وعنفهم واصلت:

- j'ai tout sacrifié pour la France et ça, tout le monde le sait. Demande aux soldats de ma division ! Ils vous le diront.

- أهدرت كل شيء من أجل فرنسا، و هو ما يدركه الجميع. سل جنود فرقتنا يخبروك.

فجاء صوته ساخرا منكرا.

- Ta division ? Où est-elle ? Tu en es le seul…le seul survivant. Eux c'étaient des fidèles, tous tués par tes amis allemands, massacrés…tous…même les blessés.

- و أين هي فرقتك؟ أنت منهم الناجي الوحيد...الوحيد. أما هم فكانوا مخلصين، قتِلوا بأيدي أصدقائك الألمانيين، و ذبّحوا...جميعا...حتى الأسرى منهم.

- Tous? - كلهم؟

- Oui tous. Quel miracle t'a épargné ? Bâtard !

- نعم ، كلهم. فأية معجزة أنجتك؟ يا لقيط!

وغاب برهة. لبث الجلادون واقفين. بينما تكفل أحدهم بمواصلة مسح وجهه من الدماء. تعاظم اللغط خارج القاعة، ولم يكن لديه شك في أن الحديث يخص حالته التي بدت لهم غريبة و بدت له مخزية. قال أحدهم بوثوق :

- si sa version est juste…alors la c'est malheureux…pour ma part je souhaite q'il soit Moncef.

- لو صحّ زعمه...سيكون ذلك محزنا...أما أنا فأرجو أن يكون المنصف.

قال الآخر مستفهما:

- Et s'il était un des nôtres? – و إن كان واحدا منا؟

فرد بوثوق أقوى:

- Alors ce n'est qu'un traître, et il le payera comme tous les traîtres le payent. - حينها لن يكون إلا خائنا، و سيدفع الثمن كجميع الخونة.

و أومأ برأسه فانقطع المسح وحلّ محله الضرب بالعصي و سياط الدوابّ. مدّ يوسف المنصري رأسه ومنّى نفسه بالموت. هنالك كان للكلمات وقع و للضربات تعيده إلى شناعة ما فعل. فأجهش بالبكاء و ضحك ضحكا منكرا، هنالك رأى "السّين" يبتلعه وينشئه من جديد ثم يعيد ابتلاعه . لا شيء يشبه ما جرى و لا الوجوه، إنما هي مهزلة بتواقيع عديدة تنصهر في طنين اللون والشكل والصوت، قعقعة منكرة يقطعها صوت حزين آت من غياهب هذا المكان، صوت يترنم بالعينين الزرقاوين.
اختلطت الضربات بترانيم الأغنية البعيدة بأسئلة المحقق الرتيبة المكررة، أحس بالعالم يدور من حوله وبالأسئلة تأكل من حقيقته. فأسلم رأسه لقضبان الكرسي، و قال:" مرحى للعذاب كذلك سولت لي نفسي".
ظل الجلادون عاكفين عليه وهو يبتسم لهم، حتى خاف المحقق أن يفقده، فأوقفهم، و أمرهم بإرجاعه إلى زنزانته.
رفع يوسف المنصري ناظريه فكان ابن الخال وابن العم في انتظاره.
حاول القيام لوقف نزيف قناة التصريف، وجد لجسده تخثرا و ثقلا. هنالك نادى جدّه مرتين، فجاءه الصدى حزينا يتغني بالعينين الزرقاوين حتى إذا انتهت الأغنية أظلم الكون وغشيته الصور...

لقد اعتقد من حضر أنه هالك لا محالة بين أرجل "العبابيد"، واندفع واحد ممن غلبت فيه الخؤولة على العمومة يدفع الناس عنه صحبة "ولد الشّاف" الذي ورّثه أبوه السّاعد القوي و مهارة طرق الحديد و تركيب دواليب الدّبّابات لدى الفرنسيين، و به وحده استحق صفة الشّاف، ثمّ أقبل ناصف يزعق من أول النهج متسلّحا بساطور السكّر الأحمر متوعّدا يطلب رأس من يقترب. فتفرق النّاس و تدافع المحايدون فاتسعت الحلقة بعد ضيق. رأى ناصف أخاه غارقا في الدم فجن جنونه و أراد أن يفلق رأس عبّود الضاحك في باب دكانه منتصرا بالعدد وقوة الحجة. أحاط الرجال ناصفا بسرعة. أمسكوا يده فطاش الساطور. كثر الهرج والمرج. دخل "العبابيد" دكاكينهم ولم يفُتهم أن يؤكدوا لأنفسهم و لمن حضر أن "ابن الفرنسيس" كان البادئ بالعيب. و أمّا من بقي فقد اختلفوا في وجهة حمل يوسف المنصري. فقال بعضهم "نحمله إلى "القايد" فيرى أثر الجروح". ورأى بعض ممن جرت فيه دماء التشبّه أن قائد الثكنة معنيّ بالدفاع عن جندي موسّم و قال "ولد الشّاف" و هو حدّاد نزيه:
"ما فيشي فايده. الشاطان - ملعون- حضر وغاب. و اللّي فات مات، احنا رانا أهل".

أما ناصف فقد استلّ المنجل و ترك الحديث وراء ظهره و كذلك فعل بأخيه. احتمله و عاد به إلى رأس نهجهم. لحق به "ولد الشّاف" فأخذ نصيبا من الجسد المضرج بالدماء....دفعا باب المقام فانفتح..دخلا غرفة "التابوت" و ألقياه طريحا يجاور جده. اندفع ناصف يبحث عن " ڨاڨو" الطبيب اليهودي الذي كان يسكن بجوار "دار الصلاة". في الأثناء قدمت "المنيّبة" صارخة زاعقة فقد جاءها من أخبرها بموت ابنها. كان يوسف المنصري يواجه الباب مستندا إلى التابوت والدم ينساب من كتفيه إلى أسفله. حينها اعتقدت أنه حي وأن مكروها قد أصاب قدرته على الزواج. فنادت الجدّ تحثّه على تشتيت نسل عبّود وقطع رزقه ونسفه من الدنيا والآخرة. ودفعت الرّجال بمنكبيها حتى كادت تسقط "ولد الشّاف". و ضمّت ابنها ضمّة كادت تكسر ما بقي، فعضّ على شفتيه. حينها أدركت مكان الجرح. قال يوسف المنصري يهدئ أمّه" يما ما تخافيش لا باس".

أقبل العم والخال وهما يحوقلان ويلعنان "العبابيد". و حل "ڨاڨو" الطبيب فأمر باللباس أن يخلع، فكان جرحا رهيبا اختلطت فيه الدماء بالصّدإ.

صبّ الطبيب على الموضع كحولا فضحك يوسف المنصري حد الدمع فقال "ڨاڨو" بلكنة يهودية:

"سَيْ عزيب أول مرّة نسوف واحد يزحكهْ الألكول، نعرفه يوزع مس يزحّك".

ابتسم ولد الشاف لعُجمة اليهودي ثم خشِي أن يرقبوا ابتسامه فقال متملقا:

" صنديد متعلّم بضرب الكرطوش كان واحد آخر راه في الجبّانه"

ورفع الخال وجهه إلى السماء كأنما تذكر ابنه أو أشفق على ابن أخته. وقال ناصف متوعدا عبّودا:

- وين عنده يهرب أنا وراه قاتله.

فلطمته "المنيّبة" غاضبة:

- هذا الكل منك أنت. لو كان عملت عقلك ما كانش يصير...يا خلواض ! يا ناتن ! آش دخلك في هداري الرجال؟

- له آش بيّ ناقص رجولية؟(والتفت إلى عمّه ثم أردف)...نستاهل هذا وأكثر، في بالي نحمي في الدم.

- يعطيك هم وغم....وحق أمي الخضراء لو كان ما يقولوا عيب راني وريّتك قدّام الرجال...

فسدّ يوسف فمها بيده وهو بين يدي الطبيب و أراد أن ينهض لولا أن ردّه اليهودي بحركة من يده، يبتغي الانتهاء من التضميد. ثم قام "الحكيم" متعجبا من هول الجرح وتلك كانت عادته في تبرير أجرته الباهظة. شيّعه ناصف إلى خارج

المقام أمام الرجال فخرج مع الحكيم خلق كثير وبقيت الأسرة. كانت "المنيّية" ترسل نظرات معاتبة قاسية إلى العم الذي كان طرفا رغم أنفه في ما حدث، نظرات يعرفها عنها الجميع. كانت ترفع حاجبا و تبسط آخر، فلا تحسن بهما إخفاء مشاعرها، كذلك كان أهل البلدة في صدق مشاعرهم وسرعة غضبهم و انفضاح عشقهم، إلا يوسف المنصري فقد أخفى عن الحكيم ضلعا مكسورا أحسّ به وهو تحت الأقدام خشية أن يكون سببا جديدا في مأساة تحلّ بأهله أو "بالعبابيد"، أو يتورّط ناصف في ما لا يرجى منه خير.
بدأت الحلقة تنفضّ من الغرباء إلا "ولد الشّاف" وكان أعزب خجولا. قدم ناصف بعد أن نقد الطبيب، وهو يزبد متوعدا عبّودا "الكلب". بدأت كلماته تذوي وهو يقترب من ابنة عمه الواقفة بالباب تحاذي أخته ترقب أملها الجريح في صمت، اغترف من الجرّة شربة ناولها أخاه فتلقفها و شرب وهو يرى في أخيه مشاعر افتقدها منذ أن حلّ بقسم "الجندرمة" ثمّ أعادها إليه، فتناول مثلها. عبّ الماء وهو يسبّ العبابيد، و يثبت نظره على "فاطمة" التي كانت مشغولة عنه بآلامها. فلكزه خاله متنحنحا و ما فهِم. التفت ناصف إلى أخته صائحا:
- آش خرجك من الحوش؟
- لهْ ما نخافِشْ على خُويا؟
- خوك خوك (وبقي يرددها ثم أردف) فضحتونا في البلاد كاملة:عياط ونديب....خويا؟ خوك ما بيه شي...هيّا روحي (والتفت إلى ابنة عمه مضيفا)هزّي بنت عمّك وانقلعي.
- باهي...عرفناك فالح في المشاكل...هذي هي أفعالك ديما ناتنة...ناوي تقتل خوك.
رفع "ناصف" يده ولطم "الزّهرة" بصفعة أدارت وجهها و أسالت مخاطها، فانكتمت...ودعاه "ولد الشّاف" بلهجة مضطربة إلى لعن الشيطان والصلاة على النبي. و كانت الكلمة الفصل "للمنيّية" التي لم تعلق على الصفعة بل غمزت "الزهرةَ" كأنّها تواسيها و دعتها إلى العودة بلهجة استطاعت الجمع بين اللّين و الشدّة:
- روحي الدار محلولة. واليوم نهار جمعة. تجيش مرا تزور ما تلقى حد. كذلك اشترك العم في مهرجان الردع فصاح بابنته"باب المصايب" وأمرها بالعودة فقفلت راجعة لا تكاد تكفّ عن البكاء خجلا و إشفاقا. أما "الزّهرة" فقد انسلخت من الحلقة كاسرة الطرف بعد أن غرّست في "ولد الشّاف" نظرة مريضة أعتى من الطرق على المناجل، فقد ورثتْ حمرة "النواصفية" و قدّ "المناصرة" وآتاها

الله من زنود "العبابيد" فلوْلا أن "الطاهر" شغلها سنوات لكان ابنها يرتع في الوادي. لقد أقسمت "المنيّبة" بعد وفاة "الطاهر" و كثرة الخطاب أن لن يزوّجها إلا أخوها الغائب عند عودته. و حلمت في بيت"أمي الخضراء"، في السنة الأولى لانتهاء الحرب بفتى مليح ينتفض من الثلج الموحل، يحطم أصفاده مسافرا على الأجساد المتعفنة، فأيقنت بالأوبة حتما لا شك فيه. و كذا لبثت "الزّهرة" تراقب النّهود الصّغيرة تكبر فتميل الأعين، و تنظر إلى جسدها المكتمل فلا تجد إلا همّ الماضي وهواجس المستقبل، و كان أكبر همّها أن لا يعود أخوها فتكون الخسارة مضاعفة.

انسحبنا من المقام و راحتا في تنهّد مسترسل كل تروي تجربتها و تحكي ألمها، و أفضت "الزّهرة" إلى "فاطمة" بما أحسّت به من "ولد الشّاف" وهو يحيطها ليحميها من أيدي الرجال، أما أنا فقد وجدت للموقف أثرا عميقا. صرت خجلا من مواجهة اهتمامهم بالإهمال و شغفهم بي بالانشغال عنهم...إن لكل شيء طعما بتّ غير قادر على استمرائه فلستُ إلا فما مرّا فقد لذة الحلو و لذعة الحار...نظرت إلى ناصف فألفيت قلبا شابا ملهوفا قد حرقه الحبّ الأعمى...رأيته أحق مني بحماية اللحم. ثم التفت إلى الخصام فما وجدت لعبّود في قلبي كرها و لا حقدا...ما نالني كان أحرى به لو أصابني منذ وقت طويل، فليت الجرح أعمق و ليت الكسر كسورا. لقد أيقنت منذ مقتل "الطاهر" أن العقاب لا يكون حتى يقيم كالسوس ترى أثره ثقوبا و أنا لم يعد مني إلا ثقوب العقاب أتلقاه من أصدقاء الأمس و أعدائهم و من أقربائي.

حاولت الاستناد إلى "التابوت"...تعلقت بيد خالي "محمد" الذي كان يقرأ أدعية، وجدت دفء يديه فكرهت إشفاقه عليّ و نظرت إلى عمّي فرأيت غضبا يتوارى وراء القرابة. فكرهت صمته و خوفه عليّ أنا الذي أفسدت بينه و بين عبّود بعد أن أفسدت لذة الحياة لديه...

أفليس فيهم من يصيح في وجهي و يؤدّبني؟ أفليس من يكشف عورتي ويفضحني؟ عمّي يُطرق خجلا، تنخر وعيه كلمات زوجه التي طالما نهته عن مصاهرة عبّود"الأعجف"..."ولد الشّاف" تبرق عيناه، يمهمه بكلمات أكاد أسمعها و لا أسمعها...قرارات تنتظر الظرف المناسب...ناصف يتأمّل قرارا صعبا يُصدِره العم...و "المنيّبة" وعدت و تريد أن تفي بوعدها... و أنا خلصت من المعركة بجرح في الكتف و ضلع مكسور.

مزيد من الصمت وعفن يقطع قصدي، و لسان تيبّس، و فكر خاو إلا من الذكريات الحية ترتع ساخرة، تعيد عليّ ما حدث كأنّه وقع توّا...

خرج من بقي الواحد إثر الآخر. رافق خالي عمّي لصلاة الجمعة، تلاهما "ولد الشّاف" بخطى متردّدة، و طلبت أمّي من ناصف أن يعود إلى الدكان ويتجنب عبّودا كي لا يتكرّر ما حدث. اقتربتْ تجسّ مكان الجروح وفاتها أن جراحي الحقيقية لا تجسّ...أودّ لو أجد قلبا مفرغا أفضي إليه بما أنا فيه...أشعر بالكلام يعتمل بحنجرتي أحاول لفظه فتنقطع بي السّبل في حركة صامتة من شفتين مرتعشتين يخالهما الجميع من أثر الطّعنة والركلات...دعتني أمي إلى العودة فرفضت وطلبت الوحدة في المقام. فتركتني وهي تطلب لي الشفاء من الجدّ. أي معنى للشفاء تراها طلبت لي؟...بقيتُ والتابوت وحدي، أتأمل سجاده التركي ومصاحف و كتبا فيها أوراد و مخطوطات يعود بعضها "لسيدي الحاج ناصف" نفسه، كان يدوِّن فيها رحلته و أيام إقامته غريبا في قابس و كفّ عن التدوين يوم أصبحت المدينة جزءا منه...في الجدار المواجه للباب عُلّقت مسبحته الضخمة التي اجتلبها من العراق و يشاع أنها لأحد حفدة "سيدي عبد القادر الجيلاني" اتخذها من العنبر السوداني والمسك الطشقندي و كوّرت في حبات ضخمة بسائل من اللبان العماني، كانت لا تفارق رقبته يدليها حتى تكون في حجره و بعد وفاته شاعت بركتها فصارت تجلب للمرضى طلب الشفاء، وللنساء الحوامل أملا في الذكور، وللصبيان دفعا لداء الحصبة و قد نفعت حتى في دفع الجدري...في الأرض كوم لكتب فيها أوراق "خويا المنصف" و بعض من صحائف "الطاهر"...بي نهم لالتهام تلك الأوراق وشمها...مددت يدي غير أنها قصيرة أشعر بعفنها حيال قداسة المكان وجلال من قتلت...

انتصف النهار و بدأ المؤذنون يدعون إلى الجمعة...غير بعيد في اتجاه البحر أصوات جوقة عسكرية تقبل مع النسائم و تداخلت بالأذان فتكونت لهما أصداء متناقضة ينفر بعضها من بعض في ألحان وجدتها أقرب الأشياء لتعريف ذاتي الغريبة التي تطلب السراب فما هي في الشرق و لا هي في الغرب، ذات كأنها المولود السقط المشوه...

بقيت والتابوت وحدي...كنت دائما أعجب من هذا الراقد الذي ترك الشمال و غاص في النخل بحب كالوباء بعيدا عن القصور والفجور هاربا إلى الله و كان يعشق القصص والسير أورثهما نسله و أورثتُ الرّحلة إلى غير دياري...خلبتني الأزرار الذهبية الخادعة فأنسيتُ منطق الأوّلين من آبائي و أجدادي. رؤى الماضي تطرف مبرقة في سكنات هذا المقام: "المنصف"...زوجته...أبناؤه...و "الطاهر" في ثوب ملطخ بالدماء...

بقيت والتابوت وحدي، قضيت إليه ثلاث ساعات أو أكثر غفوت خلالها مرّتين...فتحت عينيّ آخر مرة، فكان المصلون قد قضوا الجمعة و اقترب العصر...مددت يدي أحاول أن أدرك كوّة في التابوت أستند بها، كم كانت بعيدة " تلك الكوة التي يفصلني عنها ذراع واحد فتوسّدت همّي و عدلت عن الاتّكاء.
واصلت الأخيلة والصّور تراقصها في ذهني..أشعر بأقدام تتدافع في الخارج وجلبة تتقدّم...أردت القيام مرتكزا على "تخشيش" التابوت فأقعدني الألم...
أطلّ "ولد الشّاف" ممتقع اللون و خلفه ناصف باسما قال الأول :"أ يوسف الدنيا تهردت" أما ناصف فصاح طربا متراقص العينين "دار عبّود خلت"وأردف "ولد الشّاف" بنبرة مرتعشة :

-الطامة والعامة لبرّة...كلهم لبرة.

لم أفهم شيئا فصرخت في وجهه مستفهما:

-يا ولدي تكلم !...شنهي هل الحالة؟ حل كنيفك !..انطق !

لم يكن قادرا على الكلام من لهاث و صدمة، لكن ناصفا قال بلهجة شامتة:
- جدرمية لبرّة يعبّوا في العبابيد كالقطاطيس و "الشيخ" واقف عليهم وكل منهو ضرب يوسف المنصري باش يدكّوه في الكرّاكة.
حاولت الوقوف مرة ثانية، فلما عجزت مدّ إليّ "ولد الشاف" يده. نزلتُ إلى الشارع. وجدت "الصنّاع" يضربون كفا بكف و أربع ورشات خلت من أربابها، و "الشّيخ" يتصبّب منه العرق كمن أخرج رأسه من فم المرجل. راح يصلح ثيابه بعدما تعلّق بها الحدادون الخائفون يطلبون رحمة....فجئتُه مستفسرا قال:
- لازم ثمّ منهو شكا للفرنسيس...همّ ما يجوش وحدهم".
التفتّ، كان ناصف يقهقه فأشحت عنه و سألت: "لوين هزّوهم". قال "الشيخ": "لل□ازرنة".
لا يدرك ناصف خطر ما فعل انه بذلك يعيدني إلى أدنى درجات دناءتي للحظة الصفر ويثبت نعت الخيانة الذي كان علّة ندمي وبيت الداء. كذلك يريد لي ناصف من حيث لا يعلم أن تعيش فرنسا وهم تفضلها وكنت عزمت على طلاقها.
استمهلت "الشيخ" برهة عدت خلالها إلى "بيت أمي الخضراء"...استخرجت من الصندوق نياشيني ومن الصرة أوراقي العسكرية وبطاقة الخدمة و رسالة شكر و اعتذار لخصت بها فرنسا سنوات اعتقالي متَّهما بالخيانة حينا و التجسّس حينا آخر كل ذلك بعين أمي التي واجهتني بأسئلة لم أجد متسعا للإجابة عنها إلا بكلمة "حاضر" وأظنّها وقعت في غير محلّها. أعلم أنّها تخشى استعمالي سلاح الجدّ

لـلانتقام. أشعـر بها تـخلفني إلى الصـندوق لتتأكد من وجود "الفرفر" و الخنجر به...التحقت "بالشيخ". طلبت منه أن يرافقني إلى الثكنة. رفض أولا لكنني عالجته بجمل ليّنة ثم بأخرى مهدّدة وأخبرته أنني أبغي تخليص العبابيد فخشي إن هو امتنع أن يمسّه غدر الخنـاجر والمطارق الغاضبة. قلت و قد جرى فيّ دم محتشم غريب:

- لو كان يدخلوا الكرّاكة أنت المسؤول...صحيح تعاركنا لكنّا عايلة وحدة...و انت ما يرضيكش النّسا يتهجلن والفروخ يتيتموا.

قال متأفّفا: آش دخّلني لها الهدرة؟

ثم سكت وصلّى على النّبي....وسرنا في اتّجاه البحر...اكترينا في الطريق "كاليصا" أسرع صاحبه لما علم سرنا الذي أظنه شاع في كل البلد. أراد "ناصف" أن يتبعني فنهرته. ما كان عليه أن يسير على خطاي في كل شيء. أيّ فضل لي إذا عدت إلى صنعة الكلب؟ و بأي وجه يراني الخلق إذا سجن أهلي بسببي؟ لست أريد أن تراق دماء جديدة باسم فرنسا أو باسمي الذي اصطنعه لي الجنرال...أدركنا الثكنة. استأذنّا في الدّخول فأذِن لنا..ترقبنا في قاعة واسعة ذات أصداء ذكّرتني وقوفي أنتظر الحكم الذي سيصدرونه في شأني...ثم بصر بنا رقيب تبدو عليه الملامح العربية، كان يلازم الباب كالكلب..فلما رآنا أقبل يسأل..ثم دخل على سيّده في المكتب، و عاد إلينا مستبشرا فدخلنا. قابلنَا عريفا فرنسيا أديت له التحية مكرها..نظر في بعض الأوراق وقال:

- J'ai appris que la police militaire a fait le ménage et détenu quelques voyous.

- قد علمت أن الشرطة العسكرية نظّفت المكان، فاعتقلت بعض السفلة.

فقلت، بعد أن سلمت له أوراقي:

- Il y avait de fausses informations; Ces hommes n’y sont pour rien.

- كانت هناك معلومات خاطئة، فهؤلاء الرجال لا دخل لهم بالأمر.

تأمّل العريف الأوراق رافعا حاجبيه و غاب بها نحو مكتب آخر...ثم عاد ودعانا إلى اتباعه...قادنا إلى مكتب أفخم انتصب فيه قائد أصهب قد أدرك الخمسين من العمر طويل يختفي أغلب وجهه وراء شاربين كبيرين عقف آخرهما نحو الشمال. حرك رأسه ف ي علامة الاستحسان وقال:

- Alors, tu faisais la guerre?

- إذن كنت تحارب؟

- Oui, aux Ardennes, sous les ordres du colonel Jean.

- أجل، في الأردين، تحت إمرة العقيد جان.

- J’ai failli mourir à Paris. C'était une guerre de merde.

- كدت أموت بباريس. كانت حربا عفنة.

كتمتُ ضحكة خشيت أن أجهر بها لعلمي وعلمه أن لا حرب في باريس. إنما كان المحظوظون من أبناء الأكابر والفاشلون يمكثون بعيدا عن المخاطر. كنت أودّ أن أفتح شدقيّ و أخرج ما أنا مخرج لكنّ حاجتي إلى الصمت أكبر من حاجتي إلى الضحك، فصمتّ وقال:

- Et que puis-je faire pour vous, Caporal Joseph Mansart? و بم أخدمك؟ أيها الرقيب - ! جوزيف مانسارت

- Il y' a des hommes détenus dans votre caserne. Je vous prie de les laisser partir. - هناك رجال معتقلون في ثكنتك، أرجو أن تطلقهم.

- Nous avons su qu'ils attaquaient un soldat français. Ils l'ont frappé jusqu'à la mort.

- علمنا أنهم كانوا يهاجمون جنديا فرنسيا، و لقد ضربوه حتى الموت.

- C’est ridicule, vous voyez, puisque je suis devant vous ! Si la guerre ne m'a pas tué, ça serait bête de mourir dans une petite bagarre de jalousie.

- إنه، كما ترى، لخبر مضحك لأني ماثل بين يديك، ولئن عجزت الحرب عن قتلي فسيكون من الحمق أن يموت المرء في شجار غيرة بسيط.

لقد انسقت في الحديث...كنت مستعدا لفعل كل شيء لإخراجهم وان تطلب ذلك الكذب والتودد قال القائد متضاحكا:

- La jalousie?...le petit vilain qui cherche les femmes? C'est ça? - الغيرة؟...النزق الصغير الذي يلاحق النساء؟ أهذا هو الأمر؟

فافتعلت البسمة إرضاء، و قلت:

- Oui mais, mon commandant, ces hommes sont de la famille et je vous prie de bien vouloir leur pardonner. Sinon ma vie parmi eux sera un vrai enfer. Mon

commandant je ne veux plus porter le fardeau sur les épaules. Je ne veux que vivre…sans rancune.
- أجل! سيدي القائد ! لكن هؤلاء الرجال أقارب، فأرجو أن تتكرم بالعفو عنهم، أو ستكون حياتي بينهم جحيما حقيقيا، سيدي القائد ما عدت أرغب في حمل الأوزار. أريد أن أحيا دون ضغائن.

"الشيخ" ينصت باهتمام، خائفا و كذا يعرفه الجميع، كلما أطل الفرنسيون اضطربت رجلاه وشعر بالخطر كأنما أذنب أو كأنما أتى محرما لا يعلمه. فكان يكتفي بهز الرأس في موافقة بليدة. و زدت إلحاحا وزادت شفتاي انفراجا و أنا أتملق القائد عله يستجيب قلت:

- Je vous prie de les laisser partir. Ils ne sont que de simples malheureux, croyez-moi !!
– لو تطلقهم، فما هم إلا مساكين، صدقني

أطرق مليّا ثم رفع رأسه و قال مبتسما:

- Ne t'en fais pas. Je vais régler ça tout de suite.
- لا عليك، سأعالج هذه المسألة حالا.

صاح بالرقيب فمثل بين يديه، و أمره أن يحضر الرجال الذين شاركوا في "الشغب". فتهلل وجه "الشيخ" ممعنا في تحريك رأسه بالشّكر. قال القائد وهو يسلمني الأوراق:

- Nous fêterons demain la victoire. Je souhaite te voir participer à la démonstration, il y aura une belle ambiance dans la médina. C'est une façon de rendre hommage à ceux qui sacrifiaient leurs vies pour la France et ceux qui la servaient.
- سنحتفل غدا بذكرى النصر، فهلا شاركتنا الاستعراض...ستبتهج المدينة وفاءً للذين جاهدوا بأنفسهم في سبيل فرنسا و الذين خدموها.

- Je préfère le mot aider.
– فلو قلت أعانوها.

- Si tu veux. De toute façon, tu y trouveras peut-être des copains à toi.
- إن شئت... قد تقابل رفاقا لك هناك.

- J'y penserai. Mais sachez que mes copains sont tous déjà morts. – سوف أفكر في الأمر. لكن اعلم أن رفاقي ماتوا جميعا.

فقال القائد ممازحا مؤكدا على ضرورة حضوره بجملة عربية مفتعلة:
- "Lazem enti temchi bahi" " لازم أنتِ تمشِي باهي" و دخل "العبابيد" مطأطئي الرؤوس قد بدت عليهم علامات الضرب ...رفعوا إليّ أعينا مبصرة مستغربة فابتسمت لطاعني. أما "الشيخ" فقد وجّه إليهم نظرة عابسة مستهجنة. قال القائد:
- vous devez ce pardon à ce combattant au grand cœur.
- إنكم مدينون بالعفو لهذا البطل الحليم.
خيّم صمت ثقيل و سمعت "الهادي" يتمتم:
- Nous n'avons pas imaginé que la question se développerait...Youssef est de la famille.
- لم نتصوّر أن الأمر سيسوء، فيوسف منّا.
و قال و هو يرى الضوء بعد يأس:
- يوسف !...خويا سامحنا !
و أردف "الشيخ":
- والله كان ما جاش يوسف ولد حلال راكم خامرين في قلبها...الراجل بارك الله فيه بعد الضرب جاي يفك فيكم...و عمل المستحيل على خاطركم.
فقال عبّود وقد طرقت سمعه الكلمات:

-ياسيدي يرحم والديه.
رأيت القائد متضايقا من انقلاب الخطاب إلى العربية. فقال في حزم: "Allez… dégagez " "هيّا...أفسحوا"
و قال وهو يرتب أوراقه:
" Ne me déçois pas héros. Je compte sur toi "
"لا تخيب ظني أيها البطل ! فأنا أعوّل عليك."
خرجنا. فظل "الشيخ" يوبّخ العبابيد و يعدّد أفعالا التي لم يأتها. و أنا ترنّ في أذنيّ دعوة القائد للاحتفال بانتصار جنَتْه فرنسا بدمائي و خيانتي...

في الثكنة أسطر منظّمة تستعدّ للاستعراض،أفواج من أعراق شتّى عربية وأفريقيّة و أوروبيّة و رأيت حتّى من جذبت أعينهم إلى الوراء يسعون وراء الرقيب الذي أذكرني نفسي أفنيها في ترديد أوامر رؤسائي عندما كان للجندية طعم. كم أشتاق إلى عبدولاي و أبناء عمه...أتوق إلى رفاق السلاح الذين ماتوا و لم يرو أحد قصّتهم فليس فيها بطولة رغم البطولات وليس فيها إلا الذلّ والهوان. وحدهم الأبطال يصنعون التاريخ ثم لا يدوَّنون فيه، فلو كان للتاريخ معنى لفني الكل و خلد ابن عمي "الطاهر" و ابن خالي "المنصف"...

تواصلت النّقرات القوية على أرضية "الثكنة" بينما كنّا نسلكها خارجين. نقرات متحفزة كلها عزم...

كأنّي أسير بهم بعين الجنرال أيّام الجنديّة الأولى. كنت أضرب الأرض بعنف...أتقدمهم بعد تسوية صفوفهم، ثم أسير بهم ملقيا أهازيج حماسيّة تتطاير لها الحناجر الجديدة المتدربّة و تبحّ بها الأصوات، أصعّد اللهجة وأخفضها فيأتي الترديد من ورائي في تناغم يطرب له الجنرال لوسيان Lucien المخدوع. و ها أنا اليوم أضرب ذات الأرض أقود ورائي هزائمي، شيخا أشرف على القبر يتمسّح بأرجل الفرنسيّين و جمعا من الحدّادين الذين ضربوا في غير وجه غير الانتصار إلى الدم من كلب فرنسا.

ألقتنا الثكنة خارجها فكان "باب البحر" متشحا بالأعلام. سار الشيخ بالجماعة نحو الجنوب و ضربت في الشمال أطلب البحر كأنّ ثمة ما يجذبني. أصوات الأهازيج ترافقني موقّعةً و تهاوش "العبابيد" يختلفون في أمري بين نادم على فعلته متوجّس، ومكرّس لخيانتي. قد أفلِح بإخراجهم من المعتقل في خداعهم و لكن من المحال أن أخدع نفسي، أعلم في قرارها أنني ما فعلت ذلك إلا لتطرية صورتي القذرة التي ألمس تعاستها في عيون الكثيرين. أراها حتّى في عيني عمي الذي أجد منه برودا شديدا. أيكون عالما بشيء من مقتل ابنه؟ أيكون أنصار "الطاهر" خبّروه بأمر؟ لست أطلب منه صفحا، بقدر حاجتي إلى الفضح و الاعتراف لولا أنني أخشى ما تؤول إليه الأمور...

دوامة الأسئلة تنفتح سيّالة بالاحتمالات السيئة. رأسي مركب للأفكار الرّاتعة و الخيالات الماثلة كأنّها جوهر الحقيقة...

أرى الأسوار أمامي تذوي و تتراكب بدلها الأسلاك و أكوام التراب الموحل، و أراني أزحف مخافة القذائف متطلّعا في العتمة إلى الصّور علّني أبصر نجاتي. قال الكولونيل القتيل "أقربكم إلى النجاة أكثركم فتكا بالأعداء" و كنت قد قتلت

كثيرا فمن يضمن لي النجاة اليوم. يبدو أنني أول و آخر من نجا على طريقة الكولونيل. ليتني واريت نفسي التراب فمتّ مع من مات.
واصلت الزحف، أراني في حفرة، أراني أقتل بالحربة، أفتح عينا للدماء وأخرى للذاكرة غير المنقضية...ثم أواصل زحفي بعيون الفرنسيّين المتضاحكين كأني مندوب للدفاع عن أرضهم وحدي. كان البعض يأسف لمشهدي و البعض الآخر يضحك. انتبهت.تعسا!!..كنت أزحف على الأرض الإسفلتية بعيونهم والبحر ينشر خيبتي. إلى كم يصمد الواقع أمام هيبة الماضي؟ رأيتني أتلوّى زاحفا نحو رمل البحر كأنّ الخيال عين الحق. أزحف كما زحفت أمس، أقلّد ذاتي المأخوذة بحرب لاتريد أن تنتهي... إلهي!! أأكون كلّ هذا الوقت بينهم كما أنا الآن؟ و ما الذي حدث بالمقام؟ و ماذا فعلت طوال هذا الوقت؟ أخشى أن أكون في غفلة من الوعي ساقطا في الذكرى، أفضي بما رشح منها ثم أحسبني كاتما. أيكون إذن تفكيري في ما حدث إخبارا بما حدث؟ يا مصيبتي و الأهل يعرّونني من ورق التوت ويتلاعبون بعوراتي!...كذلك يكون إنكار عمي و كره العبابيد، أو دعاء أمي لي بالشّفاء...
أأكون مجنونا؟ فليتني أنتهي إليه فأنسى أو أتذكر فما يدرك الخلق منطقي. هول من الهواجس بأن أكون مجنونا حقا و لكنّ الخبل آخر ما يحيرني، ما همّني إلاّ أن يكون في الخبل ما يفضح الأسرار كلها، و يكشفها. بكيت للمرة الألف ثم توقفت و قد لاحظت تأخّر صبية ممن كانوا مع آبائهم قاصدين البحر نزهة، لبثوا يصرخون خائفين من الجندي الباكي المتلوّي...
مشاهد الماضي لا تكفّ عن المثول سريعة...الضّلع المكسور أشعر به و قد جبر، و الجرح مندمل، و جراح الأمس تنفتح متفجرة بالصور البشعة...البحر أراه و لا أراه، أتأمّله فتنقلب زرقته تدريجيا إلى بياض و تنفتح أمامي سهول...أشتمّ رائحة شواء اللحم...أخطو فأشعر بانخساف الأجساد بي، أرفع قدمي فتغوص الأخرى في رمال الشاطئ...شبكت عشري و ناديت "سيدي الحاج ناصف" لينتشلني مما أنا فيه، فأتى الصوت من خلفي أغنية تترنّم بالعينين الزّرقاوين...ألتفتُ فأراها جالسة على كرسيّها الهزّاز، صدرها المترع يتوارى وراء "الساتان" و"الموسلين"، عيناها الزرقاوان مفتوحتان وهي في صمتها ميّتة أو تكاد. أكنتُ هناك حينما عرُّيت الصدرَ و دفنتُ في الحزن مرارةَ الظلم الفرنسيّ؟ أكنتُ هناك حينما قرُّبت يدي أحاول تنبيهها و إيقاظها من غفلتها...و امتدّت يدي تحاول تنبيهها من غفوتها، فينهرني الزّوج بلكمة أو ركلتين قلت:
- D’où venez-vous monsieur? Vous êtes déjà mort!

- من أين طلعت سيدي؟ لقد كنتَ ميتا!
أتى الجواب غريبا:
- Le bâtard! Tu fais le fou? أتتصنع الجنون؟ !– أيها اللقيط
لم أفقه شيئا من كلامه. كان في حكم الوجوب ميّتا. لقد رأيته بأمّ عينيّ مشويّا بل متفحّما صحبة ابنتيه، فما الذي بعثه من جديد؟...البحر يرتدّ. أكاد أشعر ببرودته. قالت رفيقته أو زوجته:
"T'es vraiment jaloux à ce point? Laisse-le ce n'est qu'un déraillé". ألهذا الحد غيور أنت؟ دعه، فما" "هو إلا هائم
ثمّة حقيقة واحدة لا مراء فيها، وهي أني لم أعد قادرا على ردع آلام الماضي. لم يعد في إمكاني حكم نفسي بنفسي. أعضائي متمرّدة، و تاريخي منفلت، و الزمن رجع أفكر فيه فأوقعه من جديد على رفضي له. لا مجال للفكرة الثانية المتولدة عن المراس و الأناة و الدّعك و التّهذيب. كلّ فكرة طائشة توقع في نفسي حركة بل في جسدي المستباح. الآن أضع يدي على جبيني أجسّ حرارتي و أفكّر فأضع إصبعي على صدغي . و أندم على فعلتي فأكشّر. و أحتكّ بأحدهم، كان أسود ذكّرني "عبدولاي"، فألحق به، ثم أكره لحاقي به، فأتوقف. و أكره نفسي، فأتفل في وجهي، وأتمنّى لطمه فألطمه.
أشعر بالدّوار و شمس نهاية هذا الأصيل تبعث بأشعّتها فتنسل مع أهازيج الجوقة القريبة أغنية شيطانيّة ناشزا. أين أنا؟ المكان غير المكان. البرّ والبحر يلتحمان و الثلج و الرمل يصطلحان و السّرو و النخل يترافقان و اللّـفظ ضيّعه الهذيان. الآن أردّد الآيات فأرتّلها في جمع المتنزّهين الضاحكين الخائفين، سائحا بينهم تتراقص أمامي أشباح الموتى الأحياء... "الطاهر" يرافق "المنصف"، و غير بعيد إخوة "عبدولاي" يقتاتون على كبد الكولونيل، و يرفعون إليّ أعينا عابسة، حتّى الرقيب أوليفيي Olivier كان يحيّيني باسما، و هناك دوريّة من الفرنسيين ربّما أتوا لإعادة التحقيق. ماذا أقول لهم هذه المرة؟ أأكون يوسف المنصري أم جوزيف مانسارت Joseph Mansart""؟ أم يريدونني أن أكون قتيلي؟ يا ربّ!! لقد اكتفيت من العذاب.
آخر مرّة جاؤوا و سحبوني كالعادة إلى قاعة فسيحة، كنت متّهما بالخيانة في محكمة عسكريّة صريحة...أُجلِست في قفص الاتّهام، رأيته مريحا خاليا من الصور القديمة و الحادثة. و أسعِدت حينما تفقدت المكان فما وجدت قنوات

التّصريف. القاضي مسنّ تبدو عليه علامات الوقار، يجالسه ثلاثة مستشارين أصغر سنا، و في زاوية يمنى مكتب الادعاء الذي شغله كهل مضحك تتسارع حركاته حتى تعتقد أنه في عجلة من أمره، و لقد حفظت عنه سهولة الأشياء. فكان كلما أشكل الأمر ردّ ببسمة أو قفزة قائلا:

- Mais c'est plus simple que ça. – الأمر أيسر مما نظن.

كان لسان الادعاء سليطا. فقد بدأ مفتخرا بالأبطال الذين شاركوا في معركة فردان "Verdun" و ما تخللها من خطإ جسيم تتحمّله القيادة، ثم انتهى إلى تعديد جرائمي مستغربا صبرَ المحكمة، و عرّج على ثبوت التهمة، فقد قبض على المتّهم في زيّ ألماني و هو يحمل أوراقا عسكريّة ألمانيّة، فالأمر بسيط إذن و ليس في اليقين ما يدعو إلى الشك في كونه جاسوسا، خاصة إذا علمنا حذقه الفرنسية، و أصله التّونسي. قال القاضي :

"Il peut être aussi un mercenaire chez les allemand"

"و قد يكون أيضا جنديا مأجورا لدى الألمانيين"

فأحرج الادعاء و لكنه استدرك بوجود أوراق عسكرية فرنسية أيضا فحرّك القاضي حاجبيه و أشار إلى الدّفاع أن يدلي بدلوه في البؤرة العفنة. والحقّ أنّ المحامي كان رجلا فذا ذا موهبة، فهو الذي نبّه المحكمة إلى احتمالات جديدة ما فكرت فيها، هو الذي افترض أن أكون مجنّدا هاربا من الموت ثم هو الذي افترض أن تطالب بي ألمانيا إن أكن واحدا من جواسيسها أو جنودها. والحقيقة أنّه منحني وقتا إضافيا تمنّيت لو أنهم ما منحوني إياه. قال المحامي في تلك المحكمة:

- Monsieur le président ! Permettez-moi de rendre compte de cette vérité incontestable, mais que, hélas, le destin l’a occultée. C'est vrai que l'accusé était déguisé en allemand, cela, lui même le reconnaît puisqu'il n'a pas honte de l’avoir fait, mais il n'a jamais dit qu'il était l’un d’entre d'eux. L'accusé en question se trouvait dans une situation embarrassante, après la catastrophe des Ardennes. Et que peut faire d’autre soldat encerclé, que prendre la fuite ou se cacher ? Peut-on l'accuser d'être en vie? Pour quelle raison le prendrions-nous pour allemand et non pour un de nos soldats? Monsieur le président je compte sur votre sagesse pour laisser la

vérité mûrir, avant de condamner un soldat innocent. Et c'est pour cela que je vous prie de le laisser parler. Nous trouverons, Peut-être, dans sa version, des éléments qui nous permettront de juger les gens selon ce qu'ils sont réellement. Cela nous évitera de plonger dans la subjectivité.

- سيدي الرئيس ! اسمحوا لي أن أوضح هذه الحقيقة البينة، التي طمسها القدر. إن تنكر المتهم في زي الألمانيين لأمر صحيح، هو نفسه يعترف به لأنه لا يخجل من إتيانه، لكنه أبدا لم يكن واحدا منهم. لقد كان المتهم، في قضية الحال، في وضعية محرجة بعد كارثة الأردين، و ما الذي يستطيعه جندي محاصر غير الهرب أو الاختباء؟ هل لنا أن نتهمه بالبقاء حيّا؟ و لم نعدّه ألمانيا، و لا نفترض كونه واحدا من جنودنا؟

سيدي الرئيس ! إنني أعول على حكمتكم في إظهار الحق، قبل أن ندين جنديا بريئا، لذا أرجوكم أن تسمحوا له بالبيان، علنا نجد في روايته ما يتيح لنا محاكمة الناس بما هم عليه، و هو ما سيجنبنا التورط في الذاتية.

كان المحامي خبيثا يعرف ميول القاضي العاطفية الإنسانية و يعلم علّة الادعاء، فقد أخبرني أنهم يريدون اتهامي بالتجسس والخيانة لدعم قضية أخرى تورط فيها درايفوس" "Dreyfusالوزير اليهودي.

قال: "إن قبلت أن تكون "المنصف" تدبّرنا الأمر و انتظرنا حتى تضع الحرب أوزارها".

قلت: "ليس إلى ذلك سبيل فما أنا بالمنصف، و ليتني أكونه. أمّا أن أدنّس اسمه للنجاة فذلك نهاية في الشناعة. أأقتل الرجل، وأغتصب اسمه؟". رفضت اقتراحه، و رحت أشرح له ما لم يفقهه، أنّ هذه قضيتي و ليست قضيته و لا قضية الادعاء أردت أن يُعلِمهم فداحة الجرم الذي أتته فرنسا كلها في حقي. أردت أن يعرفوا أسباب سجني الواهية، أن يجلوَ بالبيان مأساتي التي تراكب فيها الذل و الامتهان و النّكران، فلمّا تكلّم بغير ما أردت همست إليه و رجوته أن يتركني أفصح، و بعدها فليكن ما يكون. فتكلّمت بكل الغضب و الحنق اللذين يملآني معتقدا أنهم سيفهمون أو يندمون، تكلّمت فلم تعد للأشرطة و الأزرار و الأنجم و المراتب أهمية لديّ فقد ذابت كلها في وهج الحقيقة:

Monsieur le président! Ce qui vous réunit aujourd'hui, ce n'est pas l'histoire d'un traître, ni d'un soldat ennemi pris

en otage que vous prétendiez échanger contre un de vos soldats héros ; mais c'est l'histoire d'un jeune homme qui a tout sacrifié pour la France, dont ses proches cousins. Il y a une autre version des faits que vous ne pouvez jamais appréhender si vous ne changez pas de perspective. J'ai servi la France en tant que gendarme avant de la servir en tant que soldat. Et pour la France, j'ai tué des proches et des ennemis, sans pitié, quand les Français eux-mêmes étaient sous les tranchées. Et pour votre patrie, j'ai réalisé ce qu'aucun de vous ne pourrait faire. La seule faute que j'ai commise, c'est d'être resté en vie…d'avoir pris la fuite quand il fallait mourir esclave.
Qui peut assister au massacre des Ardennes et résister, ou rester sur place, dépourvu d'armes, sans chercher à fuir ? J'ai tout avoué et tout écrit. Mais sachez que la prison m'a rendu libre de choisir et j'ai choisi la liberté. Sachez aussi que même le dévoilement de la vérité ne peut me soulager de cette impitoyable peine.
Monsieur le président! Il était plus raisonnable de vous dire que je suis allemand, il y a en moi une raison pour l'être afin d'oublier mes saletés. Mais hélas, je ne suis que ce que vous avez fait de moi: un sous-Francais humilié. Oui j'avoue maintenant que je rêve d'être à coté des allemands comme le faisait mon cher Moncef. Je ne veux plus prendre place à coté de mes maîtres, et faire le serviteur martyr. Et je ne demande que d'avoir la chance et le courage pour confesser devant ma famille, et cracher mes mémoires de la France glorieuse. Je ne rêve que d'être moi-même, le moi que je n'ai pas pu réaliser avec la France durant toutes ces années.

Monsieur le président ! La peine de mort infligée aux traîtres sera pour moi une fin loyale envers les péchés d'inexistence et d'obsession.

- سيدي الرئيس! لا تجمعكم اليوم قصة خائن و لا قصة جندي أسير قد تفكرون في مبادلته بواحد من جنودكم الأبطال، لكنها قصة شاب أهدر كل شيء من أجل فرنسا حتى أقاربه. هناك رواية أخرى للأحداث لن يمكنكم إدراكها إذا لم تغيروا في الرؤى. لقد خدمت فرنسا جندرميا قبل أن أخدمها جنديا، و في سبيلها قتلت، دون رحمة، أقارب و أعداء، بينما كان الفرنسيون أنفسهم في الخنادق، و لوطنكم حققت ما لا يقدر أحدكم عليه. ذنبي الوحيد في ذلك بقائي حيا و هربي حين كان عليّ الموت عبدا.

من يمكنه أن يشهد مذبحة الأردين أعزل فيقاوم و يثبت بدل الهرب؟ لقد بحت بكل شيء، و دونته، لكن اعلموا أن السجن جعلني إنسانا حرا في الاختيار و أنا اخترت الحرية. اعلموا أيضا أن كشف الحقيقة لن يشفيني من هذا الألم الوحشي.

سيدي الرئيس لقد كان حريا بي إخباركم أنني ألماني، و في سيرتي ما يدفعني لأكونه، لأنسى قذارتي، لكنني لست إلا ما صنعتموني مولى صاغرا، و ها أنا أعترف أنني أود لو أكون في صف الألمانيين كما كان أخي المنصف. لم أعد راغبا في مساندة أسيادي، و تقمص دور الخادم الشهيد. لست أرجو إلا الحظ و الجرأة لأعترف أمام عائلتي، و ألفظ ذكرياتي عن فرنسا المجيدة، فلست أحلم إلا أن أكون أنا، الأنا الذي لم أستطع تحقيقه مع فرنسا كل هذه السنوات.

سيدي الرئيس ! سيكون الإعدام - المكتوب على الخونة – جزاء عادلا حيال آثام العدم و الوهم.

جلست بعدها و لم أهتمّ بالمداولات و الأدلّة المعروضة على محكمة هائجة غاضبة من وقاحتي. صار كلامهم طنينا قويا ككل طنين مقبل من جلسات التعذيب الكثيرة. اختلطت الألسنة...رأيت ملامح غاضبة و أخرى متوعّدة و الادعاء يقفز بحركات عصبية سريعة كأنه طفل فقد لعبة عزيزة. و الكل ينهش في التاريخ و لا شهود. مات الجميع في تلك المذبحة التي دفع إليها فيلق الأفارقة، لم يبق منه أحد سواي. كأنما كتب لي عمر جديد على أيدي الألمان ليقضي عليه الفرنسيون...أخّرت الجلسة إلى موعد لاحق للنظر في أمري بالتوازي مع ما ستؤول إليه الحرب. خلال تلك الفترة كانوا ينقلونني من مكان إلى آخر و يجرب عليّ المحققون نظرياتهم بين عسف وعنف وعزل. و الزنزانة الخمسون منطلق كل رحلة و منتهاها منها أخرج إلى زنزانة جديدة ثم يعيدونني إليها. فإذا

أعادوني أجد قناة التصريف تتضح بالخراء، تفتح فمها ذات اليمين و ذات الشمال و يخرج من بطنها سبب جديد لآلامي القديمة، فتنعدم الصور القديمة و تتولد أمثالها مما لا يطيقه عاقل. أتأمل صوري فأبكي و أقفز فوق الكنيف، أعالج فم القناة لإسكاته بالخرق القليلة المتبقية من ملابسي فلا أجد في تمرّدها غير الإذعان.

أنظر في اتّجاه السّرير، أولّي الدّبر هاربا مما ستحمله القناة اللعينة، أسنِد إليها ظهري، أستدرّ عفوها وعطفها، فيأتي الجواب من وراء الباب في الدهليز الطويل أغنية عن العيون الزرقاء و نقرات حادّة على القضبان...فأبكي حدّ الضحك و ألتفت إليها فأجد الجنرال يغيّر اسمي ضاحكا ثم ينسينيه و يضحك...

ثم أراها تنهض عن كرسيها الهزّاز و الدّود ينخر رحِمها و يتدلّى صفائح إلى الأرضية المبللة و تفتح فمها فتلعق جسدي الخائف، و تضع لسانها في ثغري المندهش الأبله، و تدسّ رأسي في برود نهديها، ثم تتوارى في الجدار و قد أرسلت شهقة حديدية و أطلقت العنان لغناء أخرق:

"C'est le goût de ne pas être" ذاك طعم " العدم"

أشيح عنها بنظري ناحية السرير هناك حيث الحشية تتململ، رأيت "سيدي الحاج" ناصف يقلّم أظافره، و يحسّن شاربيه بمقص قصير. أغمضت عيني، تماسكت كاللاشيء، لا أطلب أن يكون الكون حولي و لا أبتغي غير النسيان. و ألبث دهرا صامتا ساكنا ميتا متشبها بالعدم...و حين أعتقد السلام، أفتحهما، أقول في نفسي "علّ الصور تُرهَق كالأنسجة"، فيأتي شبه العتمة بكل الوجوه القديمة و الجديدة و كل الصور. أعيد إغماضهما و قد اشتد باليد عزم غلق منافذ الذكريات...ثم أهزأ بنفسي، و أحسبني متوهما فأقنعها إن هي فتحت العينين رأت ما في الواقع من حقيقة، فأخادعها وأراودها عن نفسها، أزين لها وضع الطبيعة وحلاوة الإبصار، فتنصاع إليّ مكرهة باكية و تفتح عينيها، فأفتح عينيّ على صور "الطاهر" و"المنصف" يُقتلان من جديد...ما عدت أحتمل هذا الهراء. صرخت بكل ما بقي و ما لم يبق من القوة أنادي "سيدي الحاج ناصف" فلمّا رأيته منشغلا بأظافره ناديت أميّ بالحنجرة الدامية " يمّا...يمـــا...يمـــا"...

الصور المتراقصة تتلاعب في عينيّ...و ذاكرتي تذوي فتغور إلى مناطق قصيّة. و تنهض على آثارها صور البحر. أراني و قد سددت باب "برّاكة" "باولو الطلياني" و هي حانة أقيمت على حافة البحر مسقوفة بخشب النخيل، و قد اتخذها "باولو" مجتمعا لقاصدي البحر.

كنت أحدّث الجمع عن Angéliqueأنجيليك ذات العينين البحريّتين، وأروي عن فرنسا التي غرقت في همّها فما جلت همومي، وعن موت عبدولاي و هو ينفذ عقوبة في غير أوان العقوبات...و أقصّ عليهم أمر المرأة التي تفحّم زوجها وبنتاها...أخبرهم عن خيالات الموتى المتعفنة أجسادهم، تنهض سائحة في صمت يحاكي الثلج...ثم أحدّثهم عن "خويا المنصف"....رأيت آذانا منصتة و أخرى متبرّمة، و رأيت عينيْن تدمعان برطوبة البحر، و أجسادا أقلقها انسداد الباب فلبثتْ تنتظر فرصة للدخول في غفلة مني...و رأيتها!!!...تفرّست في وجهها، أوقفت السرد. أطردت "عبدولاي" من الذاكرة رغم إلحاحه، وتفلت ما بقي من كبد "الكولونيل". هي!!!...و الله هي!!!...كانت تذرف دموعا صامتة تتأمّلني...هي بعينيها الزرقاوين!...تستند إلى الجدار تراقبني، و حذوها شبح كهل أبيض كالجبنة لا يميزه شيء عن أولئك الذين خاضوا الحرب بأقنعة الغاز...

كانت تنتظر أن تستقرّ عيناي عليها، أمّا أنا فكنت أرى و لا أرى، أشاهد الصدّور على غير حقيقتها. مددت يدي إليها أردت أن أتحقق وجودها خشية أن تكون وهما في الأوهام الكثيرة التي تطوف بي. انقلب البصر فقصرت اليد عن مبتغاها...فكم أسررت الكلام فنطقتُ و تخيّلت الرفض فتحركت يداي تهشان على الفراغ، و كم تخيلت عراكا فقبضت الريحَ يداي...و كم بكيت افتراضا فتبادرت الدموع بانهمار غزير. ما السبيل إليها إن تكن وهما أو رجع خيال؟...ثم إذا هي تناديني نداء الأمس يوسف Youssouf"" لقد كان لندائها ألق مميّز و مسمع خاصّ يطرب، رغم إنكاري عليها أن تكرر ذلك فتمعن في التكرار.

كانت تحبّ أن ترى الأشياء على حقيقتها دون زيف، يفتنها الكنه الآخر في بساطته فتعمد إلى مبادلتي "بسكويت" والدتها بحبّات التّمر و تكره منّي تشبّهي بهم...أراها الآن برجليها النحيلتين وترقوتيها البارزتين و عينيها اللتين قبضتا من ساحل مرسيليا زرقته و شاعرية "السّين"...وضعتْ يدها على كتفي فكأنّما أطفأت جحيما أو حلّ الربيع في أرض ممحلة...سمعتُ من ورائها رفيقها مستفهما، قال:

- Tu le connais? - هل تعرفينه؟ -

- Oui c'est un vieil ami. Aide-moi à le soulever!

- أجل، هو خليل بعيد العهد. أعني على رفعه!

كنت أناديها فتلتفت...و أعيد النداء، فتبتسم ثم تبكي قائلة :

"Ne t'en fais pas. C'est fini maintenant" - لا عليك. انتهى كل شيء

تعاونت مع رفيقها على حملي. أخرجاني من الشاطئ و ألقياني على "كاليص" و أنا في برزخ من الأزمنة و الصور يلجّ، يرتجّ، دون أن يستقرّ على حال واحدة...أسمعهما يتكلمان يضجان، لعلهما يخوضان في أمري. أحاول أن أقول شيئا فتلحّ عليّ مشاهد الماضي، ثم أقول لنفسي هذه اللحظة الحاسمة، هي ذي أنجيليك Angélique حذوي سوف أفضي إليها بكل شيء فأرتاح من وخز الضمير. سوف استغفرها ذنوبي...خطوبي... سوف أنسى في عينيها عنف الذاكرة و أستعيد عافيتي.

أشدّ عزمي فأراها ارتدّت صبية تتلاعب بالقلم ثم تمرس أيقونة "التوريفال" المتعلقة به، تمرر القلم بين شفتيها و تسأل أباها بعد يأس عن معنى كلمة Marabout"". ثم أراها قد شبّت ترصف الكلمات و تبعث إليّ بأولى محاولاتها الشعرية ثم تغزل اللفظ فتسمعني أولى قصائدها. تذكّرت كلماتها فرحت أردّدها:

لو استطعت أن تنفذ	Si tu sais comment partir
من سجن العقل	Au-delà de la raison
ستبحر حينها في	Tu sauras comment décrire
سر اختلاجي	Le secret de mes frissons

كانت تسمع قصيدتها و تبكي و يسألها رفيقها فتتكر. توقف "الكاليص" فترجلنا عنه، ابتعد الرفيق مغضبا يجر بنطلونه الطويل. أسندتني إلى كتفها فضِعت في عبق الـ"REVE D'OR". وجدتُ الذكريات خفيفة في بريق عينيها الرائعتين... كان ستار النافذة المطلة على الشارع ينفرج، و فتح الباب. السيدة ديشان "Du Champs" واقفة حائرة صامتة...أفسحت المدخل فدخلتُ، و كأنني ما فارقت إلى العاصمة و ما تركت المدرسة، ذات الطرطور الأحمر لا تزال تخبّئ حقيبتها، و الذئب يجدّ في طلبها عند رأس السّتار. النّقوش الجصيّة هي عينها رغم تآكل بعض أطرافها...صور القديسين تشعّ من الخزانة ذات الواجهة البلورية. قالت الأمّ ببرود لم أعتده و دهشة بعيدة عن ترحيبها القديم.

- Mais c'est Youssouf Mansari! Dans quel pétrin tu t'es jeté?

-آه إنه يوسف المنصري. في أي حفرة وقعت؟
والتفتت إلى Angéliqueأنجيليك مضيفة:
-Regarde le petit dans quelle misère il est! Où l'as-tu trouvé?
؟ أين عثرت عليه ! - انظري إلى الفتى في أي تعاسة هو
- près de la plage, complètement troublé.
- قرب الشاطئ، في اضطراب شديد.
- quel malheur l'amène, après tant d'années?
- أية بلية حملته بعد سنوات عديدة؟
كان برودا مزيجا من الشفقة و الخوف معا...دلفت الأم إلى دهليز ضيق ثمّ جاءت تسوق أمامها ربّ البيت مقعدا. الهي! كم غير الزمن الرديء في السيد جاك ديشان"Monsieur Jacques Du Champs" همست إليه السيدة، فصاح بفم معوجّ و غمغم بكلمات زادتني ذهولا و لم أجد إلا أن اقفز إليه أعانقه طويلا أرمي في عجزه عجزي و في خيبته خيباني. قالت السيدة وهي ترسل تنهدا مرا ينبئ عن سنوات من الحزن:
- Pauvre Jacques! Il ne cesse de parler de toi.
- مسكين جاك! لا ينفك يتحدث عنك.
أجلستْ زوجَها إلى المائدة و شرعت تُجرعه الحساء ببطء كأن الأمر متكلف...عادت Angélique بعد أن غيّرت ثيابها فشع وجهها من انعكاس اللون الأحمر. و قد انشرح الثوب عند الصدر فانفلتت الرقبة و تمرّد نهداها وراء انعطافات صغيرة، و شُد مفرق النهدين بماسة بلورية برّاقة أضفت على صدرها الصغير تفاصيل صريحة، أضواء تذكر بساحل مرسيليا حينما بلغناه ليلا متجهين إلى الحرب. و جلسنا إلى الطاولة....
كان يوسف المنصري يتأمل رفيقته القديمة، كأنه لا يريد أن تفوته حركة من حركاتها الرشيقة. "المسيو جاك" يفأفئ بكلمات وقسمات غير مفهومة هي أقرب إلى صراخ الأصم. لقد أصاب عشاءه مبكرا أو ربما تجنبت السيدة أن تفسد وجبتها بمشهد انسكاب الحساء من فمه أو لعلها لم تشأ أن أراه في ضعفه فسحبت الصحن من أمامه. لاحظت السيدة ديشان نظرات يوسف المنصري بشيء من الغيظ. فقالت منبّهة ابنتها:

- On dirait que son cœur bat encore, même troublé. Le petit te dévore des yeux.

- حتى في اضطرابه يبدو أن قلبه لا يزال ينبض، انظري إلى الفتى يلتهمك بعينيه.

- Maman! !-

أمي

- Je ne veux pas des histoires avec ton fiancé. Bientôt tu seras mariée…dieu seul sait combien on a souffert après son départ en guerre.

- لا أريد مشاكل مع خاطبك. قريبا تتزوجين، والربّ وحده يعلم كم تعذبنا بعد سفره إلى الحرب.

- Arrête!Tout ça c'est du passé !- كفى نبشا في الماضي

أحسّ يوسف المنصري بإحراج كبير إذ وجد تبدّل الأجواء حوله. امتقع لونه و قال في لهجة هادئة معتذرة:

- Madame! Si ma présence vous dérange, je quitte.

- سيدتي ! إن يقلقك حضوري أرحل.

سكتت السيدة النحيلة لكن نظراتها الحادة لبثت تنغرز فيه، و تحسو كبرياءه.

رُفِعت المائدة..دخلت الأم بـ"المسيو جاك" ثم عادت تجمع الصحون و تلج بها إلى المطبخ تباعا بغضب بيّن. كانت تصدر صوتا حديديّا حادّا وهي تغسل الملاعق و الشّوكات، زخّات الماء المتتابعة أعادته إلى الزّنزانة الخمسين، لوهلة استوت أمامه قناة التّصريف الملعونة وانفتحت بها صور سريعا ما أطردها بكلّ فكره. رفع بصره برفق، كانت هناك ماثلة أمامه تتأمّل جريان الأحداث في وجهه و كأنّما أعادها سنوات إلى الوراء. ظلّ يراقب حركاتها الصّغيرة. ثم قال:

- j'ai toujours rêvé de toi, de t'avoir et de te…posséder. Jamais, ces années écoulées, ne m'ont fait oublier ta beauté et ton charme.

- لطالما حلمت بك، و تمنيتك، و لطالما اشتهيتُ...امتلاكك. لم ينسني انثيال هذه السنوات جمالك و سحرك.

- ah bon, tu n'as pas oublié? Comme c'est bizarre! Je croyais que la petite Angélique était morte en toi.

- حقا لم تنس؟ إنه لأمر عجيب، اعتقدتُ أنك واريت أنجيليك الصغيرة النسيانَ.
- Tu es toujours vivante. Et Tu sais que je ne peux me détacher de toi. Tu es toute ma vie…tout ce que reste de ma vie…
- لا تزالين حية فيّ، تدركين أنني لا أستطيع منك فكاكا، فأنت كل حياتي، بل كل ما بقي منها.
سكت و هو يجرع ألم الاعتراف الأول، و مرّ أمامه بعض ما عانى في وهم فرنسا فقال:
- Dans ma solitude, quand je restais derrière les barreaux et les murs froids, seul le souvenir de tes yeux me donnait envie de vivre. L'écho de tes paroles me soulageait, pendant les durs moments de tortures.
- كانت ذكريات عينيك وحدها ترغبني في الحياة، خلال وحدتي خلف القضبان و الجدر الباردة، و كان صدى كلماتك يشفيني من أوقات العذاب العصيبة.
- Hélas je ne me souviens que de tes peines que tu m'as causées, de ton indifférence aussi. Quant je souffrais, toi tu étais ailleurs. Et puis, il y a le temps, mon cher !qu'est-ce que tu viens faire maintenant?
- يؤسفني أن لا أذكر منك إلا الصدّ، و الآلام التي فجعتني بها، طالما تعذبت و أنت مني بعيد. ففيم قدومك الآن؟
-.. .Prier…ton…pardon. – أستغفرك.
- tu croix que c'est aussi simple?...Youssef ! Tu n'es plus ce que tu étais pour moi...Rappelle-toi bien !quand tu m'as laissé pour des putes et des folles, mais merde quand j'y pense je me dis que tu n'étais qu'un mirage.
- أتعتقده يسيرا؟...يوسف! صرتَ غريبا عني...أتذكر حينما فارقتني إلى البغايا و المجنونات، تبا، حينما أفكر في ذلك أجدك في نفسي سرابا.
- Enfin, tout comme la France l'était pour moi.

صبّت كأسا و همّت بملء مثلها له لكنه مسك يدها في لطف فما به حاجة إلى السّكر...و أضمر في دخيلته ضرورة الشدّ على وقت استعاد به وعيه بالأشياء و الأشخاص...قالت وهي ترسل زفرة أسف:

- Qu'est ce que t'as fait de ta vie!? - فيم أفنيت حياتك؟

- rien que des guerres perdues et des fautes…une vie de raté. Toute ma vie est bousillée. Des études de merde, comme si j'étais un Français, deux ans de travail chez les vauriens de la gendarmerie, deux ans à la guerre, et puis pour boucler cinq ans de prison…accusé d'être traître, après tout ce que j'ai fait pour la France…eh oui, Ils fallait aussi attendre la fin de la guerre pour qu'ils décident de mon sort.

- لا شيء غير الأخطاء و الحروب الخاسرة...حياة مخفق كلها ضياع. دراسة قذرة كنت أتلقاها كأنني أحد الفرنسيين، و سنتان لدى أوباش قسم الجندرمة، و سنتان في الحرب، و لتمام حلقة الفراغ خمس سنوات من السجن قضيتها متّهما بالخيانة بعد كل ما بذلته في سبيل فرنسا...أي نعم ! وكان عليهم أيضا ترقب نهاية الحرب لتقرير مصيري.

تبسم يوسف المنصري و أضاف:

- les allemands ne m'ont pas réclamé. Car ils connaissaient leurs soldats…tu sais ! il m'arrive parfois de ne plus savoir qui je suis, Youssef, Moncef, Joseph?!

- لم يطالب الألمانيون بي، لأنهم كانوا يعرفون جنودهم...و أنا قد أنسى أحيانا من أكون، يوسف أو المنصف أو جوزيف.

سكت يوسف المنصوري هنيهة ثم أردف:

- Depuis mon retour, c'est la première fois que je sorte de la maison. J'ai peur des gens! Je les craints. Je vois dans leurs regards tous les signes de l'accusation, de la haine…Mais tout ça ne peut durer, j'en ai assez…Les choses ne sont plus comme elles étaient.

- للمرة الأولى أخرج من البيت مذ عدت. كم أخشى الناسَ! أرى في أعينهم نظرات الاتهام و الحقد..لكن كفى!..لم تعد الأشياء كما كانت.
ثم أمعن في جمل مفأفئة متداخلة إذ رأى فصول حياته تمثل أمام عينيه الذابلتين. و ذوت أنجيليك Angélique خلف الصور....
ها هم قادمون، أشعر بأرجلهم تضرب أرضيّة الدّهليز الطويل، وبالباب الغليظ يصرّ صريرا فاجعا..الآن يسوقونني...أجد الدّهليز متغيّرا، فالنّوافذ الصغيرة في ازدياد..ثم فتِح بابٌ فإذا أنا في سجن آخر اصفرّت فيه الوجوه و طالت القامات. و ألقِيتُ "عرنسيّا" بين الألمان. كانوا ممن وقعوا أسرى في الحرب و أملت المحكمة أن يرشح شيء من اجتماع الأعداء بعد أن يئسوا من استجوابي طول تلك المدة. أسمع هسهسات وهمسات تتحوّل إلى اقتراب، أراني أرتعِد من كثرتهم ثم إذا هم يفتحون في الجسد جراحا عديدة. رأيتني في عيون الأسرى من الألمان جاسوسا..كانوا يشكّون في أمري ثم تطوّر شكّهم إلى كلمات نابية وعنف..و أنا لست أذكر حينها أبكيت فعلا أم لعنت "المسيو جاك"...
ظلّ يوسف المنصري يرتعد و أنجيليك Angélique تضمّه إلى صدرها الصغير، بعبرات مختنقة...السيدة "ديشان" تراقب الموقف من المطبخ المطل على الصّالون الصّغير، خائفة أن تفسد عودة الغائب زواج ابنتها..فتح يوسف المنصري صدره لرفيقة الأمس تنام فيه...أحسّ بها تسكن عظامه فأمعن في ضمها حتى و جد للضلع المكسور طقطقة صريحة. قرّب شفتيه إليها، أكل وجنتيها شوقا، و هي تقاوم باستسلام رفيق و رفض كالدعاء:

"Non je ne peux pas. Assez !" — لا أستطيع. أليك"!" عني

حاول أن يغتسل في عذوبة شفتيها، و يتطهّر من كل الآثام. كانت تلفظ نفسا مريضا متهدّجا، و تلقي بنظرات ميتة يغتالها شبق الماضي...لكنها تنفلت برفق...صور الماضي تكاد تضمحلّ وتترك مجالها لفرحة اللقاء و ندم على الضياع... الجسد الباريسي في برزخ الحب و الرفض...قالت nonكرّرتها كأنّما تستعذب القرار أو تستلذّ العثور عليه و أضافت:

- C'est fini. Ton époque est achevée…Je ne veux plus faire l'odalisque, ou la servante qui attend son maître.

- كفى. لقد انتهى عهدك..لن أكون مجدّدا القينة التي تنتظر سيدها.

لم يكن مندهشا مما سمع فقد تعلم من القدر إمكان المستحيل وكينونة اللاكائن، و لكنه طمع في الغفران و أمل أن تكون هي بعفوها أولى مراحل الاعتراف بأخطائه فقال:

- une seule chance pour avouer mes fautes! Une seule pour devenir l’homme que tu voulais, et que je n'ai pas pu réaliser.

- امنحيني فرصة واحدة لأعترف بذنوبي، و لأكون الرجل الذي تمنيتِه و ما استطعت.

- trop tard. Tu ne peux pas imaginer ce que tu as fait de moi! Des années d'attente et de souffrance. Je t'ai aimé, mais le monde change, et moi aussi. Je ne crois pas que ça pourrait marcher comme avant. Je suis navrée.

- هيهات! لا يمكنك أن تتصور ما عانيته بسببك! سنوات من الانتظار والألم... لقد أحببتك، لكن العالم يتبدل و أنا كذلك. لن تكون الأشياء على عهدها السابق. آسفة!

- Tu n'as rien à regretter. – لا تأسفي.

و اقترب منها، حتى شعر باختلاج جسدها...بكى في صدرها طويلا فما وجد إلا الشوق لمزيد الذوبان...انسحبت معتذرة"S'il te plait" "أرجوك". وبرزت "السيدة ديشان" فحسمت الموقف في صراخ لم يعتده، و قد طفح بها الكيل ففاض على وجنتيها زرقة غريبة. قالت وهي تنتزع ابنتها من حضن العائد:

- Tu ne te rends pas compte…Tu es en train de tout détruire? Quel diable t'amène après ces années d'oubli? Malheur!...Alors tu viens mordre la main qui t'a élevé ?

- ألا تدرك أنك..تدمر كل شيء؟ أي شيطان أعادك بعد سنيّ النسيان؟...اللعنة! جئت إذن تعض اليد التي ربّتك؟

تقدمت نحو الباب بغضب شديد. فتحته، و أشارت نحو الشارع مردفة:

- Je ne veux plus te voir ramener tes fesses ici!

- لا أريد أن أراك هنا مجدّدا!

أسدل يوسف المنصري على وجهه حمرة..تقدم نحو الشارع، وقبل أن يبتلعه الظلام التفت إلى Angélique يستفهم بنظرات قطّ شرّده أهله، فما و جد غير

وجوم و دموع أمسكتها فرحة الانبعاث. إدّاك غرق في حمرته، وقذف بأحماله و أسماله نحو العتمة...
لبث واقفا، غارقا في أسفه و عندما همّ بالحركة فتحت أنجيليك Angéliqueالباب، أطلت منه، رفعت إليه عينيها البريئتين وقالت:
" Youssef ! Je te pardonne...Pars en paix ! "
"يوسف! قد غفرت لك...فارحل بسلام!"
و عادت تغلق الباب باكية.
سمع و هو يتقدّم في الدجى صوت الأم تهدئ ابنتها:
"Je suis fière de toi petite" إني فخورة بك يا" بنيتي"
كانت خطواته تحاذي الكنيسة. خلّف باب البحر وراءه و غرقت رجلاه في تربة الوادي الموحلة. الكلاب تنبح من حوله كأنّما تعرّفت إلى قريب. كان يهشّ عليها بيديه خوفا فتحرّك أذيالها...
سار تشيّعه الأهازيج العسكريّة الصّاخبة القادمة مع النّسيم البحريّ، و تطنّ في أذنيه كلمات الأمّ...اتّخذ طريقه نحو الجنوب محمّلا بخيبة جديدة وضاع الجنوب في تفاصيل الوهم المتجدّد...
كنت أحاول الوصول إلى البيت أوّل الأمر و آخره...تتراقص حولي أشكال زائفة لوهم ينافس الحقيقة، فيتحوّل النّخل سروا والعشب الغضّ حقول سنابل، و حدود البساتين الصغيرة تلالا رمليّة يختفي وراءها الأصحاب والأعداء. أحاول أن أركّز على الطّريق التي أحفظها غيبا. كم وصلت في ما مضى بيتنا مغمض العينين، كذلك فزت على "الطاهر" الذي كثيرا ما كان يتعثّر فيسقط، حتى جاء زمن أبصر فيه "الطاهر" و عشيت عيناي تماما، ربما لأنني ما تعوّدت على نعمة الإبصار.
أعلم أنني إن أصلْ ظهر نهج "الحدّادة" أبلغْ طلبي...لكن من يبلغنيه و قد اختلطت السّبل فحلّ الوهم في الواقع؟ أعتقد من عدد الخطوات أنني بلغت ظهر الدّكاكين...أمعن في فتح العينين فتواجهني تلّة و أسلاك حديديّة و يطنّ الرّصاص في أذنيّ فأنحني. و أنعطف مخافة انكشاف أمري...ثم إذا أنا قد رجعت إلى الكنيسة، فأعاود رحلتي، فتعود المشاهد ساخرة. و في آخر مرّة و جدت نفسي أقطع نصف المسافة إلى "ظهرة الحمارنة" في "شط ّالسلام"...
ظلّ يوسف المنصري شوطا من اللّيل يحاول العثور على بيتهم فلا يفلح. وقد يدرك في جهده من "زاوية" الجدّ قربا فتخدعه الصّور فإذا هو ينأى من جديد.

لبث منقطعا إلى وهمه بين الشمال و الجنوب و كان ما يخشاه أن تدفعه الحاجة إلى سؤال بعض السّامرين عن بيته، فقد مرّ بحلقات عديدة ممن واجهوا الوادي يتسلـّون بحشيش "التّكروري". كان يقاوم سؤالهم تائها ويحسبه الجاهل في نزهة، فلما أصابه الإعياء عزم على أن يسأل أوّل من يعترضه، و أعدّ للسؤال صيغة مناسبة، حينها عزّت الحلقات و وجد نفسه مستندا إلى جدار الكنيسة تطرق أذنيه مقاطع من "النّاي السعيد" معزوفة الجنرال المحبّبة، منبعثة من نافذة بلورية غير بعيدة.

رفع رأسه إلى صومعة الكنيسة فلفّته أضواء بلورها بزرقة أعادته إلى لون الثلج...فتهالك على الأرض...

خطوات واثقة تقرع الوحل باتّجاهه...شبح الموت أو الحياة؟ لعله "الطاهر" أو "المنصف" أو "الملازم". تمنّى لو يفتح الله بمقدمهم باب الخلاص...ناداه الشبح مرّتين و هرول نحوه.

كان يوسف المنصري يسمع النّداء في زخم التذكر فيمثل في ذهنه المفتش فالجنرال فالكولونيل فالقاضي، فيجيب بالفرنسية، ثم يُبْصِرُ فيرى القاضي يجرّمه في إثم لم يقترفه. ودّ حينها لو يعدمه في الآثام التي أتاها.

ثم يبصِر فيرى القاضي يبرئه إثر رفض الألمان تسلمه و قدوم الدفاتر بعد نهاية الحرب. و عندما كان القادم يقترب طلب يوسف المنصري الجنوب وما كان يسعى إلا شمالا...

تأكد "لناصف" أن شيئا ما أصاب أخاه. أمعن في الجري حتى لحق به. أمسكه من تلابيب المعطف. و جذبه جذبـة نطق لها الضلع المتهـشم الخرب، و تواجهت الأعين. فما شك يوسف المنصري أن القاضي يريده ميتا أو يريده ألمانيّا. أنشأ يدافع عن نفسه بلسان فرنسي حاقد نادم، وناصف يجرّه جرّا عنيفا حتى بلغ به رأس الزّقاق. هناك تجمّعت العائلة ترقب ما آلت إليه غيبته منذ أن خرج لإطلاق "العبابيد". تهللت الأسارير عند رؤيتهما، لكنها سرعان ما اكفهرت لمنظر الجندي العائد الذي انقلب وجهه فضاعت عيناه في نظرة بلهاء واسعة لا تتغير، و فم متدله ينسكب لعابا كأنما أصابته لعنة "المسيو جاك".

و جوه مشفقة خائفة...أمّ تدعو اللطيف أن يلطف، و تنظر إلى زوجة العم وتتمتم، ثم لا تجد حرجا في لعن أيادي السحرة التي امتدت إلى ابنها بسوء...أما زوجة العم فقد أيقنت بضياع ابنتها، و "فاطمة" تولول سرّا وتعضّ أصابعها جهرا.

أدخِل يوسف المنصري إلى بيت "أمي الخضراء" فوجدها مضاءة بالشموع التي خلفتها الزائرات و قد كنّ اليوم عديدات بسبب ما حصل بينه و بين "العبابيد" فكان

من المنتظر أن تقبل النسوة لسماع آخر الأخبار. أحاطته العائلة و هو ملقى بجوار الصندوق، تصطك رجله بصرة الرسائل فتحدث خشخشة منكرة.
أشعر بوخز في جنبي و ألم في إصبعي. الوجوه كلها حاضرة كأنني في مأتم.
"الطاهر" يتأمل الصندوق متحفزا. يترصد غفلة ليستحوذ على
"الفرفر"..."المنصف" يضحك ساخرا..."الجنرال" أراه في جبّة يتخفّى من العار دامع العينين ينادي الرحمان و أنا في برزخ جنائزي، و الطنين في ازدياد...
أحاول ترتيب خرابي و التماس اليقين في الوهم لعلي أتمالك نفسي بنفسي، فأنهض بقرارات مؤجلة كان علي اتخاذها و التعجيل بها. أنوي أن أخطب "فاطمة" لناصف و إن بقي في العزم بقية أفضيت بآلام الماضي كله. لا أبتغي غير طرح الحمل و وضع الأعباء عن كاهلي المرهق بالأسرار. سأزوج "ناصفا" "فاطمة" و أخبر عمي و خالي و أخلص إلى سكني وليكن ما يكون. سأتكلم، لكن أين هم الآن؟ أشباح الموتى و الأحياء من الأقارب و المنسيين يحلّون كلهم في غير أشكالهم. أنهض للخطاب فيضحي لساني عربيا متفرنسا أو فرنسيا مستعربا و أطلب البيان ثم إذا هو لثغ صبي يروم المعنى فينقطع به الجهد...أعيد صوغ الخطاب...أتأمل أثر الكلام فأرى وجوما كالقبر. وجوه تنقلب إلى غير حقيقتها، تحلّ في الوهم كالواقع فهما في تماه مخرّب انهدم به المكان فالإشارة و المبدأ و المنتهى. لا شيء غير قصد ضيّع خطابه و خطاب مفرغ من المعنى و متحدّث عنه غائب في برزخ المعنى بين وقوع و نزاع في الوقوع.
أحاول العثور على ألفاظي و أنفاسي...أحاول أن أتبيّن منطلقا للحديث أو وجها قارا لا تبدّله الأخيلة المتراقصة فأبدأ به رحلة الاستغفار...
وجه عمي ينسل و جوها و "فاطمة" يتغير لون عينيها ألف مرة في الآن ذاته...و أمي ترفل في ثياب "أمي الخضراء" و الكون حَمل معسر...
انفضّ الناس من حوله و هم يضربون الأكفّ، خارجين بقناعات مختلفة في الطرائق مجمعة على جنونه، إذ تأكد الخال من أن الجنّيّة اليهوديّة قد سكنت ابن أخته و أفسدت عقله، و الأمّ تسأله من حين لآخر إن كان أكل شيئا في غير بيتها و لا تشك لحظة في أن مفعول السّحر بدأ يسري في ابنها، أما ناصف فتأكد لديه أن لكمات "العبابيد" و ركلاتهم قد أصابت جمجمته.
عاد الجميع إلى مخادعهم...أغرقت المدينة في السّبات...حتى أمه التي كانت تخاصم نفسها و تقنعها بضرورة السهر استهلكتها العادة فأصاب منها النوم مقتلا...وحده يوسف المنصري ظل صريع الوهم يتكلم صمتا ويصمت عن خطاب كثير، ثم وحده ينشئ اعترافا و وحده شاهد" أمي الخضراء" تخرج

من الجدار، أظعنت ناقتها الحمراء و مضت إلى حيث للأشياء معناها الذي لا يزول...
أمدّ رجلي فتصطك بصرّة الرسائل المخشخشة...أنظر في ألسنة الشموع فأرى "الطاهر" يتأمّلني أو يتأمّل الأخشاب. أشيح عنه بوجهي فيحتكّ ضلعي المهشّم بزاوية الصّندوق العتيق حيث ينام خنجر سيدي الحاج ناصف و "فرفره"...
لم ينم يوسف المنصري، لبث يصارع التباس الوهم باليقين وتمرّدت جراحه القديمة و الحادثة فجعلت ليله أهزوجة أنين، ثم أنس إلى آلامه فهي على كلّ حال دليله إلى أن الأشياء عادت أخيرا إلى حقيقتها و قرّ لديه أن الألم هو الواقع، و أنّ عليه قبول الجراح ليحيى الحقيقة على حقيقتها.
أذّنَ لصلاة الفجر فأسرع إلى الباب يطلب الخروج قبل أن تنهض أمُّه. التقى عمّه و خاله مترافقين إلى المقام. صبّح عليهما و أراد أن يُمضِي ما عزم عليه...واجههما برأس مطأطئ و فم مرتعش متردّد مملّ " عمي...خالي..يا خالي نحب.." سكت...ماتت الكلمات و أجهض اللفظ...
ربّت عمّه على كتفه المريض و قال خاله راجيا:" هيا وليدي!..انهض صلـّي معانا و العن الشّاطان!." لم يجد إلاّ أن يساير الخطى، للموت في فمه مرارة و للفظ قصور.
دخلنا المقام...كرهتُ أن أصلّي دون وضوء...أخذتُ حجرا و تيممت ثم أنكرت شبه الطهارة مع وجود الماء فقصدت المتوضأ...خلعت ملابسي...سكبت على جسدي الماء فكم كان برد اليقين عذبا! وجدت سكنا لم أعتده منذ مقتل "الطاهر". ختمت الغُسل بوضوء و انضممت إلى الصفّ فإذا بعمّي و خالي قد ابتعدا...
و أفسح له ولد الشاف مكانا بجواره. صلـّى الإمام الأولى بأوائل "البقرة" والثانية بأواخرها حتى إذا أدرك قوله تعالى" {لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا و ارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} هزّه اللفظ فانهمر الدمع و جعل ينشج بصوت مخنوق...
أمعن في الرّكوع حتى تكلّست يداه على ركبتيه، ثم أمعن في السّجود حتّى كادت التحيّات تنقضي. و أفشِي السّلام فقفز إلى عمّه و خاله يقبّلهما و يطلب منهما العفو" بربي سامحوني راني غالط...و الغلطة مش مني..." لم يفهما مغزى كلامه، لكنّهما تصوّراه من أثر هذيان البارحة..لبث الاثنان بعد الأدعية و"الأوراد" ينتظران من يوسف المنصري مفاتحتهما في أمر "فاطمة"، و همّ العمّ

أن يفقأ عين الحرج، لكنه خجل إزاء الوضع الحرج و قال في نفسه مبرّرا "كل تأخيرة و فيها خيرة".
تركاه في المقام و انصرفا إلى سبيلهما..لبث "ولد الشّاف" بعدها بدقائق متربّصا ثم انصرف لمّا وجده يكلّم نفسه، و قرّر أن يكون حديثه في "الزّهرة" مع من يعقل.
أحاول أن أجرِي ما عزمتُ عليه فتغتالني براءة خالي و عمّي الكريهة، ويقعدني جبني، حتى فقد العزم ألق المبادرة وبريق الحرارة. فوجدت مع البرود أن لا معنى للاعتراف و قد تأخّر موعده...
ها أنت ذا تعيد ترتيب حياتك بعدما عزّ فعل الترتيب بل استحال. فإذا أنت قبل كل شيء و بعده بائع لحمك و مريق دمك. أصوات العائلة المشفقة كرهتها لأنها أطهر منك فهي عليك حرام. و صوت فرنسا مضجر بلؤمه، و الوسط عدم، و الرجوع هراء...
أبحث لنفسي عن لفظ يلّخصني فأستهلك اللغة، و ما فيها إلا قذارة النعت. ما أنا إلا حب تائه ينأى عن الصدر الطاهر إلى الأرجل الفاجرة أسكب فيها لعنة فرنسا.
كذلك هربت من براءة أنجيليك Angélique إلى صدور البغايا.
كانت بطيبة المعلمة تبعث إليّ بالهدايا و القصائد، تستدرّ لقاء وترجو من الله أن لاأكون جديّا في علاقتي مع ابنة المفتش المجنونة، بينما كنت أدفن ذكرى "الطاهر" في بنات فرنسا، و لمّا سمعتْ خبرَ التحاقي بالجيش سافرتْ إليّ، دعتني إلى العودة وشدّت يدي، فجذبت خصرها بقوة المُهمل المحبوب. منحتني حبها و منحتها شبقا، و حين اعترفتُ لها بحكايتي مع زوجة "الجنرال" ركبت إليّ...تمنت هربي، فركِبتُها متكبّرا، وغلِبت تحتي بذات العلة...لم أعرف أبدا أنه الحب. كنت احمّلهم جريرة التشبّه بهم، و مقتلَ "الطاهر" و كلَّ أمراضي و أجِدُ إلى لحمهم سبيلا، فأعرّيه بالحقد والشبق و الرغبة في النسيان، و قبل السفر بأيام إلى الحرب كانت هناك أيضا قالت:
" Et si la guerre n'arrive pas à te faire oublier?"
" فإن لم تنسك الحرب؟"
قلت و أنا أنْحَتُ اعترافي بحبها في رأسها الصغير:
"Ton amour me ferait trouver mille raisons pour oublier."
"سيهبني حبك ألف سبب لأنسى"
كنت مغرما بتعذيبها أفضي إليها بخيانتي حتى إذا شعرتُ ببعدها داعبتُ مشاعرها اللطيفة. وقفتْ حينها على صخر "سيدي بوسعيد" خلعتْ ملابسها وألقت بنفسها

في لظاي. فاغترفت من زرقة عينيها و بياضها. و نادتني في سكرة الحب أن أعود معها أو نهرب، فلم أعرف من العودة إلا سبيل الثكنة. اصطحبتها إلى المحطة كانت تلهو بشاربي و تدسّ رأسها لإخفاء الدموع. وافترقنا فقلت في نفسي ها أني انتصر على فرنسا...الآن تمرّ الحياة فلا أجد للفوز في نفسي طعما...الآن تختلط كل الوجوه، و يغيب السّكن. الآن تعود الخيالات، "فما بقاؤك يا يوسف المنصري إلا لمزيد من الوجع"، كأنه مخاض لا ينتهي، فإن لم يكن بيديّ أن أبوح فما أراني اليوم إلا مجبرا على تخليص نفسي من نفسي، وليكن اليوم موعدا للتحرّر من وهج الذاكرة العذاب، وليكن!

انتفض يوسف المنصري..قفل راجعا إلى بيته...ولج بيت "أمي الخضراء"...فتح الصندوق...تناول صرّة الرسائل فدسّها في صدره ثم التقط خنجر الجدّ و فرفره و فتّش أسفل خرقة فعثر على صرّة البارود فجعل كل ذلك في جيبيه. أجال بصره في الدّار كلها و قبل أن يخرج دخل على أمّه في مقصورتها...ظل يبكي في حجرها كالمودّع. تسأله "المنيّبة" في حيرة " آش جرالك يا كبدي" فيجيبها بالدموع...ثم خرج متهيئا لخطب جلل ظل مؤجلا.

توقفتُ عند إحدى الزوايا المعتمة. لا أعلم أين أضع رجليّ...كل السّبل متشابهة...الكون حولي ضباب كثيف من الصور القديمة المتجددة. غصّ الفكر بأفكار عديدة لم أعد أعلم منشأها...لديّ قناعة واحدة واضحة:هي أنني جرعتُ كفايتي من الألم و الآثام و آن لي الانسحاب على أن لا يبكيني الذين تألموا بسببي. وحدهم الذين لم يألموا لأفعالي أريدهم أن يستغفروا لي.

الليل ينسحب...خيوط الضوء ترتعش في رتابة بليدة...النخل يرفع هامه... الضفادع اليقظة ما فتئت تتنافس في النقيق قبل أن تكدّر الماء أرجل النسوة يغسلن في الوادي الضحل. إلى أين المسير؟ كل الأصوات تتجمع في صوت واحد، ما كان منها مؤتلفا و ما كان مختلفا...صوت "الطاهر" و هو يلفظ آخر كلماته المُدينة، صوت الرصاص، نداء أنجيليك Angélique...وهج زوجة الجنرال...شهقات البغايا...الألوان ذاتها تتكرر حتى تفقد طعمها...

سمِع يوسف المنصري الجوقة العسكرية تتقدم باتجاه المدينة ترتفع والشمس قادمة من الشمال، فبكى قائلا "ها أن فرنسا تنتصر" وردّد في نفسه "الأيام تتشابه". ثم سمع النسوة يخلّفن الوادي وينسحبن نحو العمران لمشاهدة الاستعراض فقال "هذا جوهر التشابه". حملته الأرجل إلى الشارع المكتظ المؤدي إلى باب البحر فشاهد وجوها سودا ذكّرته عبدولاي و وجوها بيضا ذكرته الفرنسيين و سمع نداء المدافع. فقال "اشهد يا ناصف، أني زوجتك فاطمة!"

تقدّمت الجوقة يرافقها التصفيق فقال: "كذلك سوّلت لي نفسي أكل لحمي و قتل بعضي"
و شاهد أنجيليك Angélique ملتصقة بخاطبها الفرنسي الطويل. و رأته فاختلج جسدها...ودّت لو تخوض في الجموع المحتفلة وتلتحق به في الجانب الآخر من الطريق، و همّت...ثم توقفت وعادت تمسك يد خاطبها و تداري دمعها بالتصفيق، و عندما التقت عيناها بعينيه، شيّعته بنظرة آسفة فقال "كذلك ضعت يا يوسف المنصري".
و انسحبتُ إلى اللاشيء راجعا إلى الوادي، يدي تندسّ في الصرّة المخشخشة تعيد قراءة الرسائل المحفوظة بفرحة مكرّرة كأنها وصلت توّا أداري بها لحظات الوعي المؤلمة، ثمّ حين يرتدّ الهمّ أترك الرسالة إلى غيرها، أعيد قراءتها، حتى تبددت الرسائل في الوحل، و الواقع وقع مهول يطنّ في أذنيّ. صور تترى تتسل صورا تسمعني الصراخ نيئا لزجا و ما في الكيس شيء أواري به عورتي...
توقف يوسف المنصري وسط الوادي الذي ودّه سيلا و قال:" الآن أو لا زمن مطلقا". استل "الفرفر" حشاه بما تبقى من البارود...رفعه إلى صدغه. ضغط على الزّناد الصّدئ فما طاوعه...حوّله إلى صدغه الأيسر فلم يجد استجابة من السّلاح المهترئ. ألقى "بالفرفر" في الماء...استلّ الخنجر...نطق الشهادتين و ذبح نفسه مصرّا على تمزيق كل الأوردة...تكوّم يوسف المنصري في الماء حيث كانت آخر النسوة تطهّر ثياب وليدها الجديد...
انتظر دقيقة آملا أن تنفلت أجنحة روحه من جسده أو يشعر بالسكون...مرّت دقـائق و هو واع بكلّ شيء...عزم على النّهوض فنهض و صرخ حتى كادت حنجرته تقفز من فمه...استقام بدمه...جسّ رقبته فوجد الجرح عظيما نازفا داميا و لا موت. الدم ينسكب في الوادي أحمر ساخنا يخالطه فرت المريء...أشعر بالأوردة ممزّقة مقطوعة...لكن لا موت، و لا أثر لما أردته من خلاص. أي هول أقسى من أن يطلب المرء الموت بيديه فلا يناله؟ ثم خطر لي أنّني لم أفعل ذلك في الواقع، و إنّما هي تصاريف الوهم...فأخذت الخنجر...جعلته في مستوى القلب...ضغطت، بل استلقيت على وجهي حتى ولج قصده تماما، و لبثت أنتظر...منّيت نفسي برؤيتي أفارق جسدي...فما كان إلا الهراء.
لبث يوسف المنصري عامّة يومه و شهره بل دهره يطلب الموت فلا يسعفه. و لم يعد يتردّد على بيته منذ أقبلت زوجة المرحوم "المنصف" منفذّة وصيّة زوجها بأن ينشأ الأولاد في تربة والدهم.

منذ ذلك اليوم تاه يوسف المنصري، تأكله ظلمة الشتاء و هاجرة الصيف. كان يُشاهد في معطفه العسكري، بيد صرّة فارغة و في الأخرى خنجر قديم صدئ. و كلما سأل الصغار عنه آباءهم و أمهاتهم كان الرّدّ دوما أن لعنة الله على الحبّ و الحرب و السحرة و الجنيّات اليهوديّات.

انتهت يوم 27 مايو 2006
منير الرقي



الكاتب

منير الرقي: مولود في 27 فيفري 1968 أصيل ولاية قابس
متحصل على الإجازة في اللغة العربية من كلية الآداب بمنوبة في جوان 1992

درّس بمعاهد عديدة من ولاية قابس
انتقل للتدريس بسلطنة عمان في إطار التعاون الفني من سنة 1998 إلى سنة 2000
متزوج منذ 1995 و له ثلاثة أبناء
له رواية أولى بعنوان "الدوائر المهشمة" لم تنشر بعد و هي متحصلة على الجائزة الأولى لبلدية قابس في الإنتاج الأدبي لسنة 1996
تحصلت روايته الثانية "خدعة العصر" على "الكومار الفضي" لسنة 2008
نشرت هذه الرواية بدار الجنوب للنشر تحت "سلسلة عيون المعاصرة" التي يديرها الأستاذ توفيق بكار
للنقد والتعليق: reggui_mounir@live.fr